

وليد الخالدي

عارف العارف، النكبة والفردوس المفقود*

تتناول هذه الدراسة التاريخية سيرة المؤرخ الفلسطيني عارف العارف منذ بدايات القرن الماضي، وفي هذا التاريخ يقدم الكاتب مرآة لوقائع وتحولات في منطقتنا من خلال سيرة العارف وكتاباتاته التي ابتدأها بتأليف كتاب "رؤياي" الذي دعا فيه إلى قيام اتحاد جمهوريات عربية. وتأخذنا الدراسة إلى تواريخ متعددة منذ ذهاب العارف إلى إسطنبول، ثم سجنه في سيبيريا وهربه منه ليعود إلى فلسطين في سنة ١٩١٩، مروراً بالانتداب البريطاني في فلسطين، وانتهاء بالموضوع الأهم وهو النكبة التي أرّخ العارف لها. وهذا التاريخ للوقائع يدق أيضاً في سيرة العارف وكتاباتاته ومواقفه، فضلاً عن أن الدراسة تؤرخ للنكبة عبر سيرة العارف، وتؤرخ له بمرآة الوقائع وكتابات أخرى. وفي تاريخ الدراسة لمراحل النكبة بين أواخر سنة ١٩٤٧ وبداية سنة ١٩٤٩، عبر سيرة العارف وكتاباتاته ومصادر أخرى، فإن الدراسة تقرّبنا من أحداث النكبة التفصيلية، فنقدم رواية تجمع بين تاريخ للنكبة وللعارف في آن واحد.

والأشخاص الذين شاركوا في تلك الأحداث. ولقد رأينا أن نضم الأجزاء الأربعة الأولى (وهي صلب الكتاب) في جزأين في هذه الطبعة الجديدة التي بين أيديكم، وأن نضم الجزأين الخامس والسادس الأصليين في جزء ثالث صارفين النظر عن الجزء السابع ومستعيزين عنه بصور ملائمة اخترناها وجعلناها في متن الجزأين الأولين الحديثين مضيفين إليها خرائط سياسية وعسكرية منتقاة وهذه المقدمة.

وإنه ليطيب لي في هذا المقام أن أتقدم بالشكر،

صدرت الطبعة الأولى من كتاب عارف العارف: "النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود، ١٩٤٧ - ١٩٤٩" عن المطبعة العصرية في صيدا لصاحبها الحاج شريف عبد الرحمن الأنصاري، في سبعة أجزاء، في السنوات ١٩٥٦ (حين صدور الجزء الأول منه) - ١٩٦١، وهي السنة التي صدر فيها آخر الأجزاء السبعة. وبينما ضمت الأجزاء الأربعة الأولى المتن الأساسي للكتاب، حُصص الجزء الخامس لوثائق دولية وعربية وإحصاءات مختارة، والسادس لأسماء الشهداء الذين استشهدوا في القتال (١٩٤٧ - ١٩٥٠) من أبناء فلسطين، ومن ضباط جيوش الدول العربية وجنودها الذين اشتركوا فيه، وحُصص الجزء السابع لصور الأحداث

* كتبت هذه الدراسة كمقدمة للطبعة الجديدة من كتاب "النكبة" لعارف العارف الذي سيصدر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

وعن الجهد الذي بذله ليقنع جدي [والده شحادة] بالموافقة على سفره إلى تركيا، ليتمكن من تحصيل العلم الذي يطمح إليه، وعن سعادته عندما اقتنع جدي الذي كان يحبه ويخشى عليه من البعد والاعتراق. "وتضيف فريدة أن والدها سافر إلى إستانبول سنة ١٩٠٦، أي عندما كان في سن الرابعة عشرة، والتحق هناك "بإحدى مدارسها الثانوية"^٤، حيث أنهى هذه المرحلة سنة ١٩١٠.^٥ ويفيدنا تماري بأن هذه المدرسة كانت "المكتب السلطاني المعروف بـ 'نمؤة ترقية'"، لكنه يقول إن سفر عارف إلى إستانبول كان سنة ١٩٠٩.^٦ اختلف الرواة في دراسة عارف الجامعية؛ فبحسب "الموسوعة الفلسطينية" "أتم دراسته الجامعية في إستانبول، ونال منها شهادة في الإدارة والسياسة والاقتصاد سنة ١٩١٣"،^٧ ووفق العودات "انتسب لكلية الآداب في جامعة إستانبول، ونال الشهادة عام ١٩١٣"،^٨ وفي كتاب "من هو؟" ورد أنه التحق "بجامعة إستانبول وتخرج منها سنة ١٩١٤"،^٩ وبالنسبة إلى فوزي يوسف "نال درجة الدكتوراه في الاقتصاد السياسي"،^{١٠} وبحسب ابنته فريدة "التحق بالجامعة وأتمها سنة ١٩١٣"،^{١١} ووفقاً لتماري "درس الأدب في جامعة إستانبول حيث حصل على شهادته الجامعية سنة ١٩١٣".^{١٢} وأغلب الظن أن المعهد الجامعي الذي التحق عارف به كان "الكلية الملكية" بحسب دروزه، بيد أن هذا يضيف قائلاً: "ولا نعرف يقيناً إذا كان تخرج من تلك الكلية ونال إجازتها"،^{١٣} والله أعلم. ويفيدنا تماري بأن عارف "عند تخرجه عمل محرراً ليلياً في صحيفة 'بيام' التركية"، ويقول أيضاً إنه "خلال دراسته الجامعية [كذا] اشتغل محرراً في الصحافة التركية ليسد نفقات تعليمه".^{١٤} وتخبّرنا ابنته فريدة: "ولمّا لم يكن وضع جدي [والد عارف] المادي يمكنه من إرسال النقود إليه فقد اشتغل في الصحافة ليلاً ليتمكن من تحصيل نفقات دراسته، واشترك في تحرير جريدة 'بيام' التركية".^{١٥} وانتسب عارف خلال إقامته بإستانبول إلى المنتدى الأدبي الذي أنشئ بعد قليل من إعلان

بادئ ذي بدء، إلى السيدة فريدة العمدة، ابنة المؤلف المرحوم عارف العارف، فهي التي تفضلت وأذنت لمؤسسة الدراسات الفلسطينية في إعادة طباعة كتاب والدها، كما يسعدني أن أشيد بالمطبعة العصرية في صيدا السبّاقة إلى نشر كتاب "النكبة"، والرائدة دوماً في إحياء التراث العربي والإسلامي بهمة آل الأنصاري الكرام أباً عن جد. وأخيراً وليس آخراً أسجل عظيم شكري وبالغ تقديري للأخت السيدة نرمين عباس، المحررة الرئيسية في قسم التحرير في مؤسسة الدراسات الفلسطينية، لما بذلته من جهد جهيد وعناء فائق، بإشراف شيخ التحرير في المؤسسة الأستاذ سمير الديك، في التحقق من خلو نص هذا الكتاب مما شاب طبعته الأولى من أخطاء، وفي مطابقة الحواشي مع مظانها فيه، وإخراج الصور والخرائط هذا الإخراج المتقن، وفي إعداد فهراس متنوعة وفيرة تضع أحداث النكبة ودقائقها كما سجلها العارف في متناول القارئ بكل يسر ومن دون عناء.

أ) ولادة العارف ونشأته العثمانية

هو عارف بن شحادة بن عبد الرحمن بن مصطفى العارف، وكان والده شحادة تاجراً متوسط الحال في البلدة القديمة في القدس.^١ ولد عارف سنة ١٨٩٢، وتخبّرنا ابنته فريدة أنه "كان لا يعرف تاريخ ميلاده إلا من وصف جدتي - رحمها الله - التي كانت تقول له إنه ولد في نفس العام الذي دخل به القطار مدينة القدس، فعرف أن ذلك كان عام ١٨٩٢، إلا إنه بقي يجهل اليوم والشهر الذي ولد فيه بالتحديد".^٢ كانت تسميته في صباه وأول شبابه عارف شحادة، وكان له أخ شقيق اسمه سليمان.

التحق عارف بالمدرسة المأمونية في القدس،^٣ لكنه كان يتوق إلى السفر إلى إستانبول للالتحاق بمعاهدها العلمية. وتخبّرنا ابنته فريدة أنه كان يحدث أولاده لاحقاً "عن تقديره للعلم والمتعلمين،

لم يكن له خيار في الالتحاق بالكلية الحربية، ومن ثم الانخراط في سلك الجندية، بينما يعتبر تماري "أن التحاقه بالكلية العسكرية، وخدمته لاحقاً في صفوف الجيش كضابط في الجيش الخامس (في فترة كان في استطاعته أن يتفادى هذه الخدمة عن طريق دفع البديل النقدي) مؤشراً إلى إيمانه بوحدة السلطنة والدولة العثمانية".^{٢٤} ويربط تماري ذلك في مقال مسهب بـ "انقلاب" عارف على "الفكرة العثمانية" لاحقاً و"تحوله" إلى "الفكرة العربية" خلال أعوام الحرب،^{٢٥} وهو قول فيه نظر كما سيلي شرحه.

ويخبرنا عارف أن كتيبته اشتركت في عدة معارك خاضها الجيش التركي ضد الروس، وأنه أسر مع من أسر من الضباط في "معركة أرضروم الشهيرة، تلك المعركة التي خُذل فيها الأتراك وانتصر الروس. وقد أريد فيها معظم رجال الكتيبة التي أنتمي إليها، فلم يبق منهم على قيد الحياة سوى عشرة أنفار، أنا واحد منهم".^{٢٦} ويساق عارف مع من أسر من الكتائب الأخرى إلى أواسط روسيا، ثم إلى سيبيريا. وكانت عملية نقل الأسرى العثمانيين من جبهة القتال إلى سيبيريا "تجربة رهيبة... لم يصل إلا واحد من كل أربعة جنود عثمانيين إلى المعتقل في شتاء سنة ١٩١٥، أما الباقون فقد قضى عليهم الجوع والعطش والأمراض التي تعرضوا لها.... واللافت أن هذه النسبة أعلى كثيراً من نسبة هلاك الجنود الأوروبيين الآخرين المعتقلين في الجبهة الروسية".^{٢٧}

ويستقر عارف ورفاقه في الأسر في معتقل سموه "يوني غوردوق" في كراسنويارسك على شاطئ نهر ينيسي، حيث بقي مسجوناً ثلاثة أعوام. وكان معه في المعتقل ثلاثة آلاف وخمسمئة أسير، وأحاط الروس المعتقل "بسياج منيع من الحديد والأسلاك الشائكة، ونصبوا حوله الأبراج العالية. وفي البروج جنود مدججون بالسلاح يرقبون بعين ساهرة كل حركة من حركاتنا".^{٢٨} ويصف تماري (في مقاله المشار إليه)، استناداً إلى مصادر تركية وغربية، حياة المعتقل

الدستور العثماني في تموز/يوليو ١٩٠٨. ويلمّح العودات إلى أنه كان من مؤسسيه،^{٢٦} لكننا لا نعلم بالضبط تاريخ انتسابه إليه، علماً بأنه هو نفسه لا يدعي أنه كان من مؤسسي المنتدى.^{٢٧} ومن أبرز من نعرف من الناشطين في إنشاء المنتدى ورعايته: عبد الكريم الخليل - وكان رئيسه - ويوسف سليمان حيدر، وسيف الدين الخطيب، وجميل الحسيني، ومعين الماضي، ورفيق رزق سلوم، وعزة الأعظمي، ورشدي ملحس.^{٢٨} وأقيم المنتدى ليكون بيتاً عربياً يلتقي فيه العرب المقيمون والزائرون. وكان.... فوق الإقليمية والطائفيات.... وكان المنتدى يشهد حفلات ومناسبات تُنشد فيها الأناشيد القومية وتلقى فيها المحاضرات في مآثر العرب وحقوقهم.... وكان القائمون على المنتدى يحرصون على إبراز الولاء العربي للدولة العثمانية وحسن التواصل مع الشباب والرجال الأتراك، الأمر الذي حفظ المنتدى إلى ما بعد دخول الدولة في الحرب العالمية الأولى.^{٢٩} ويقول أنطونيوس إن عدد المنتسبين إلى المنتدى كان بالآلاف، وإنهم من الطلبة العرب في معظمهم، وإنه كانت له فروع في مختلف المدن في سورية والعراق.^{٣٠} ويقول دروزة عن فترة إقامة عارف بإستانبول إنه "عاش في جو الحركة العربية وما كان من تشاد بين رجالها ورجال الترك، وتشرب روح القومية".^{٣١} وبعد خروج عارف، أو تخرجه من الجامعة، عُيّن موظفاً في قلم الترجمة التابع لوزارة الخارجية التركية^{٣٢} لإتقانه اللغتين العربية والتركية.

ب) الحرب العالمية الأولى والأسر في روسيا القيصرية

يروى عارف في مقدمة كتابه "رؤياي" أنه عندما نشبت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) "أمرت مع من أمر من الخريجين [من الجامعة] بالانخراط في سلك الجندية. وبعد أن قضيت مدة التدريب العسكري، وهي ستة أشهر، تخرجت من الكلية الحربية برتبة ضابط، فساقني الأتراك إلى جبهة القتال في القفقاس.^{٣٣} ويُسْتدل من كلامه هذا أنه

الرقابة الشديدة الروسية والعثمانية والنمساوية.^{٢٤} وتشاء الأوضاع أن يتعرف صاحبنا إلى ضابط بولندي في الجيش القيصري هو الكولونيل كارول ريبا، وكان هذا يرغب في تعلم التركية على يد العارف، فحصل له على إذن عسكري خاص في مغادرة المعتقل خلال ساعات النهار، ولم يلبث العارف أن انتقل في أواخر العام الثالث لاعتقاله إلى السكن خارج المعتقل في كراسنويارسك، حيث صادق عدة عائلات روسية كان يدعى إلى بيوتها في الأعياد وغيرها من المناسبات الاجتماعية. واستغل العارف هذه الأوضاع ليتعلم اللغتين الروسية والألمانية، وبلغ إتقانه للأخيرة أنه استطاع ترجمة كتاب "معضلة الكون" (Die Welträtsel) إلى العربية^{٢٥} للفيلسوف الألماني إرنست هيكل (Ernst Haeckel / ١٨٣٤ - ١٩١٩)، الإحيائي المنادي بالمذهب الطبيعي (naturalist) الذي بسط وعمم نظرية داروين بالألمانية. ولقد تأثر العارف تأثراً عميقاً بكتاب هيكل هذا في نظرته إلى الحياة، وإلى مجتمعه العربي.

تصافر انهيار النظام القيصري وقيام النظام البلشفي مع انتشار الفوضى في إدارة معسكرات الاعتقال الروسية، ومع أخبار هزائم الجيوش العثمانية (سقوط بغداد في يد الإنكليز في كانون الثاني/يناير ١٩١٧) وأخبار تقدم الثورة العربية، على خلق الدوافع في نفوس الأسرى العرب في كراسنويارسك إلى الفرار من معتقلهم. "وما هي إلا عشية وضحاها"، والكلام هنا لصاحبنا العارف، "حتى أخرجنا هذه الفكرة إلى حيز العمل والتنفيذ، فهربنا. وقد كنا واحداً وعشرين عربياً، يحمل كل واحد منا بين جنبه حب الوطن العزيز: الوطن العربي الكبير، الذي لا يفرق بين دين ودين"، وكان ذلك في السادس عشر من أيلول/سبتمبر ١٩١٨.^{٢٦}

اتجه الفارون وجهة الشرق الأقصى في طريقهم إلى الوطن الذي كانوا يأملون بأن يصلوا إليه في غضون شهر أو شهرين على أكثر تقدير، ولم يتم لهم ذلك إلا بعد خمسة أشهر صحاح^{٢٧}، ذلك بأنهم مروا في طريقهم "بمنشوريا، وخارابين، وفلايدفوستوك الواقعة في أقصى الشرق؛ ثم

بصورة عامة ونشاطات الأسرى الاجتماعية والثقافية، ونظرة السلطات الروسية إلى كل من الأسرى العرب والأسرى الأتراك، وأثر انهيار الحكم القيصري وانتشار الفكر الشيوعي في المعتقلين، وازدياد التوتر بين العرب والأتراك مع تواتر أخبار العمليات العسكرية، وخصوصاً بعد وصول أخبار الثورة العربية في حزيران/يونيو ١٩١٦. ويفيدنا عارف بأن الخبر عن الثورة هذه أتاها "لأول مرة من السيد رشيد رضا منشئ مجلة المنار" في رسالة بعث بها إلي من القاهرة جواباً على رسالة كنت أرسلتها له من المعتقل، راجياً أن يزودني ورفاقي العرب في الأسر بعدد من الصحف العربية... فكتب إلي حفظه الله يقول: يسرني أن أخبرك أن الشريف حسين بن علي شريف مكة أيده الله قد أعلن الثورة ضد الأتراك، وأن جنوده الغر الميامين يحاصرون الآن المدينة..."^{٢٨}

ويخبرنا عارف أن المعتقل احتوى على "ملاعب لكرة القدم، وأخرى للعدو والقفز... وكانت لنا قاعة كبرى للمحاضرات، وأخرى للمسامرات، ومسرح للتمثيل، ومكتبة فيها كتب قيّمة."^{٢٩} وانتشرت في المعتقل صحيفة تُنتج محلياً تدعى بالتركية "كورتولوس"، أي "التحرير"، ظهر فيها، إضافة إلى أخبار الجبهة الحربية، مقالات عن تاريخ الشعوب التركية تعكس بروز التيار التركي القومي بين الضباط الأتراك.^{٣٠} ويبدو أن صدور هذه الصحيفة كان من الدوافع التي جعلت عارفاً ورفيقاً له سورياً هو أحمد الكيالي يصدران، بدورهما، "جريدة عربية هزلية أسميتها ناقة الله... ثلثها هزل وثلثها جد. وما أصعب الحياة في ديار الأسر وأعماق السجون، إذا لم يتخللها هزل ومجون."^{٣١}

وعنوان الجريدة التي كانت تصدر أسبوعياً يشير إلى المعجزة الربانية على يد النبي صالح التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. وصدر من الجريدة نحو ٥٠ عدداً خلال الفترة ١٩١٦ - ١٩١٧.^{٣٢} واستمر العارف في الكتابة إلى أهله في القدس بالتركية العثمانية وبالفرنسية، وذلك من خلال الهلال الأحمر العثماني. واقتصرت رسائله على الأخبار الصحية، وعلى طلبات الكتب والصحف بسبب

١٩٤٣. وأعاد المؤلف نشر الكتاب بالعنوان ذاته سنة ١٩٥٧ وهو في وسط انهماكه في كتابة كتاب "النكبة" الذي تقدّم له، غير أنه أضاف إلى الطبعة الثانية إضافات عديدة، فبينما كان عدد صفحات الطبعة الأولى ٨٦ صفحة (نحو ١٦,٠٠٠ كلمة) أصبح عدد صفحات الطبعة الثانية ١٢٩ صفحة (نحو ٢٧,٠٠٠ كلمة). وعلى الرغم من أن إضافات الطبعة الثانية تشير إلى إشارات واضحة إلى أحداث وأعلام تلت سنة ١٩١٨، بل إلى أحداث سنة ١٩٤٣، فإن الطبعة الأولى تظل هي المرجع لمعرفة فكر صاحبنا وتوجهاته القومية بعيد الحرب العالمية الأولى مباشرة، بينما تغدو الطبعة الثانية مرجعاً لهذه التوجهات في فترة الانتداب البريطاني على فلسطين، وما يليها.

ليس هنا المجال لإجراء مراجعة تفصيلية لمضمون طبعتي "رؤياي" والمقارنة بينهما، لكننا سنكتفي بشذرات من الطبعة الأولى ننقل إلى القارئ نكهة النص الأصلي: وضع العارف كتابه "رؤياي" في قالب منام يرى نفسه فيه طائراً بصحبة طائر أليف ودود "أخضر اللون، عريض الجناحين، وهبته الطبيعية مزية النطق"، يعرض عليه أن يطير به إلى "أحبّ البقاع" إليه، فيجيب العارف للتو: "بلاد! بلاد! بلادي العربية"، فيبشره الطائر وهما يعبران الفضاء إليها بأن البلاد العربية أصبحت "بلاد علم ومعرفة، بلاد زراعة وصناعة، بلاد كسب وتجارة، بلاد سعي وعمل، بلاد جدّ ونشاط، بلاد نور وجمال، بلاد رقي وكمال"،^{٤١} وأنه مضت أعوام عصيبة تكبد العرب خلالها "أنواع المحن وضروب الآلام"، إلا إن "من كان يجري في عروقه ذلك الدم [العربي]، لا يفقد أبداً مزية الذكاء والظنّة، والكرم والنجابة، والوفاء والفصاحة، والجرأة والإقدام، وسعة الخيال وسرعة الانتقال"^{٤٢}.... وقصارى القول أن الأمة العربية أصبحت اليوم أمة سعيدة، خبيرة بجميع ضروب السعي.... بعد أن كانت بالأمس جاهلة تعيسة، تلعب بها الأهواء.^{٤٣} ومن خلال تقاطع السؤال والجواب يضيف الطائر أن العرب أصبحوا "أحراراً، ليس من الوجهة الإدارية والسياسية فحسب، بل

باليابان والصين؛ فعبّرنا نهر يانغ - تسي - كيانغ، وزرنا شانغهاي، وهونغ كونغ الثغر الأمين الواقع على بحر الصين. ولقد مررنا بشواطئ سومطرة والفيليبين، ونزلنا سنغافورة.... كما أننا هبطنا جزيرة سيلان التاريخية.... وعبّرنا البحر الهندي، ونزلنا بومباي؛ ثم مررنا بمضيق عدن، واجتازنا البحر الأحمر؛ ثم عبرنا قناة السويس، ومنها رجعنا إلى فلسطين." وهكذا تكون عودة العارف إلى مسقط رأسه في أواخر شباط/فبراير ١٩١٩ بعد غياب عنه دام عشرة أعوام وأكثر.^{٣٨} وتخبّرنا ابنته فريدة أن صاحبنا توجه فور وصوله إلى القدس إلى دكان والده في البلدة القديمة، "فوجده يحادث رجلاً ويعبّر له عن قلقه الشديد لعدم سماعه أي أنباء من ابنه عارف... فأخذ يستمع إلى الحوار وهو يخشى أن يفصح عن نفسه خوفاً على جدي الذي كبر وأصبح ضعيفاً، وعندها التفت الرجل إلى الوراء وصاح: ها هو ابنك يا حاج! وكان لقاء حاراً بعد طول غياب."^{٣٩}

ج) "رؤياي" (١٩١٨)

لا بد من التوقف هنيهة قبل متابعة سيرة العارف عقب عودته إلى القدس لنشير إلى كتاب طريف سماه "رؤياي" ألفه وهو في طريق عودته هذه بعد إقلاعه في كانون الأول/ديسمبر ١٩١٨ على ظهر السفينة دونيرا من مرفأ شانغهاي في الصين، ذلك بأنه ضمّن كتابه عصارة آرائه وتأملاته في أوضاع المجتمع العربي المتردية التي عاشها، مردفاً إياها بتصور لوطن عربي مستقبلي تخطى سلبياته المعاصرة جميعاً، وازدهى بصفات التمام والكمال التي تعبر عن أقصى طموحاته. وهكذا يشكل كتاب "رؤياي" نافذة كاشفة نطل منها على عالم مؤلفه الذهني والشعوري غداة خروجه من الأسر وعشية عودته إلى الوطن، وخصوصاً على رؤيته لذاته ولهويته القومية ولموقعها بين قطبي "العثمانية" و"العروبة". ويبدو أن العارف أنجز الكتاب سنة ١٩١٨ قبل وصوله إلى القدس، لكن لم ينشره إلا سنة

أمثال ساطع الحصري، الذين بقوا على تمسكهم بالقومية العربية بعد القضاء على الحكم الفيصلي في دمشق سنة ١٩١٩.

د) عودة العارف إلى فلسطين تحت الحكم العسكري البريطاني (١٩١٨ - ١٩٢٢)

لم تكن القدس التي عاد إليها العارف في شباط/فبراير ١٩١٩ كالقدس التي كان غادرها شاباً يافعاً لمتابعة دراساته في إستانبول سنة ١٩٠٦، وإنما كانت الأوضاع فيها قد انقلبت رأساً على عقب بزوال أربعمئة عام من حكم بني عثمان لها، وبدخول الجيوش البريطانية الزاحفة من مصر إليها في كانون الأول/ديسمبر ١٩١٧ بقيادة الجنرال ألنبي، وهو أول قائد عسكري محتل غير مسلم تقداً أرض بيت المقدس بعد استعادتها من الإفرنج على يد صلاح الدين الأيوبي.

وضعت بريطانيا فلسطين تحت إدارة عسكرية انتقالية مباشرة بانتظار إقرار نظام الحكم فيها في مؤتمر الصلح المزمع عقده في باريس، علماً بأن مصير البلد كان قد تقرر سرا بموجب وعد بلفور بإقامة وطن قومي يهودي فيه (١٩١٧)، ومعاهدة ساكس - بيكو السرية أيضاً مع فرنسا (١٩١٦) السابقة له على الرغم من تعهدات بريطانيا وعودها للشريف حسين، قائد الثورة العربية ضد العثمانيين، بدعم استقلال الأقطار العربية ووحدها ومبدأ تقرير المصير الذي رفع لواءه الرئيس الأميركي وُدرو ولسون، كبير زعماء الحلف الغربي المنتصر على ألمانيا وحلفائها. وتنفيذاً لوعد بلفور كانت الحكومة البريطانية قد سمحت لوفد صهيوني برئاسة الدكتور حاييم وايزمن بزيارة فلسطين في نيسان/أبريل ١٩١٨ للتشاور مع السلطات العسكرية البريطانية في كيفية البدء بتنفيذه، الأمر الذي زاد في شكوك العرب ومخاوفهم من نيات لندن.

من حيث الفكر والدين أيضاً... فالدين أمر وجداني، ولا أحد يعاتب على عقيدته. إذ الجميع يعتقدون بأن هذا الأمر يجب أن يبقى بين العبد وربّه... والعربي المسلم أصبح يفكر الآن بسعادة أخيه المسيحي، كما يفكر بسعادته وسعادة أطفاله... وكلاهما يقول... إننا نحن الاثنين نرجع إلى أصل واحد، ومجد واحد، وتاريخ واحد. إنه ينطق بالضاد كما أنطق بها... وإن النهضة العربية نهضة قومية لا دينية. ولذلك لا بد من التفريق بين كرسي السلطنة ومنصة الدين.^{٤٥}

ولدى سؤال العارف الطائر: "ومن هو ملك العرب؟" يجيب الطائر: "إن الدولة العربية الكبرى مؤلفة من سبع عشرة جمهورية هي: الحجاز، نجد، اليمن، حضرموت، عُمان، البحرين، الكويت، العراق، سورية، لبنان، شرق الأردن، فلسطين، مصر، طرابلس الغرب، تونس، الجزائر، ومراكش." ولكل دولة رئيس ومجلس تشريعي، وثمة "لجنة عربية عليا" تنتخبها الجمهوريات السالفة الذكر تمثل الاتحاد العربي الكبير ويمثل أمامها وزيراً خارجية ومالية كل دولة من "دولة الاتحاد".^{٤٦}

يتضح مما اقتبسناه من كتاب "رؤياي"، وهو غيظ من فيض، أنه كان لدى صاحبنا، بعيد الحرب العالمية الأولى مباشرة، فكرة قومية عربية علمية تقدمية واضحة كل الوضوح تقوم على مبدأ الاتحاد الفدرالي بين الأقطار العربية كافة، في كل من مشرق الوطن ومغربيه. ويعيد العارف نشر كتابه سنة ١٩٥٧، كما ذكرنا، مع كثير من الإضافات في تفصيل فكره القومي وانتمائه إلى العروبة في وقت ما زال الانتداب البريطاني قائماً، وبعد مضي عقدين ونيف من التحاقه بإدارة حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين.

ونحن إنما نشير إلى كتاب "رؤياي" ومضمونه القومي، وكذلك إلى إعادة طباعته وسط الانتداب، بسبب ما ذهب إليه تماري في مقاله المشار إليه، إذ يعتبر أن التحاق عارف بحكومة الانتداب كان بمثابة تخليه عن التزامه القومية العربية التي كان قد اعتنقها، بحسب اجتهاد تماري، خلال الاعتقال في سيبيريا، خلافاً لغيره من المفكرين العرب، من

إلى الحاج خلال زيارته للدكتور حافظ. وكان الحاج وقتئذٍ "حليقاً متطربشاً وتبدو عليه علائم الجد والعزيمة والإخلاص.... فتوثقت الصلة والصدقة الحميمة بيننا...."^{٥٠} ونشط الناديان المقدسيان في التوعية السياسية والقومية والاجتماعية.

وما إن اكتملت شبكة الجمعيات الإسلامية المسيحية في فلسطين حتى تقرر أن يُعقد في القدس مؤتمر عام لممثليها من أجل وضع ميثاق وطني يوضح مطالب البلد القومية لعرضها على مؤتمر الصلح في باريس. وعُقد المؤتمر العام في الفترة ٢٧ كانون الثاني/يناير - ٩ شباط/فبراير ١٩١٩، وحضره ٢٧ عضواً مثلوا الجمعيات الإسلامية المسيحية كافة. وانتخب عارف الدجاني الداودي رئيساً للمؤتمر ومحمد عزة دروزة سكرتيراً له.^{٥١} وكان هذا أول المؤتمرات الفلسطينية الوطنية العامة السبعة التي عُقدت خلال الانتداب، وكان آخرها المؤتمر السابع في حزيران/يونيو ١٩٢٨.^{٥٢}

تناول خطباء المؤتمر خطر وعد بلفور على حقوقهم وعدم شرعيته ومخالفته الوعود المقطوعة للشريف حسين وسقوطه بقبول الحلفاء مبادئ الرئيس ولسون. وأكدوا ما كان لعرب فلسطين من مشاركة في الحركة العربية، وما قدموه من شهداء وتضحيات. وانتهت الأبحاث إلى إقرار ميثاق وطني هذه بنوده:

- "فلسطين هي سورية الجنوبية وجزء لا يتجزأ من سورية.
- "الاستقلال التام لسورية جميعها بلا حماية ولا وصاية ولا احتلال وضمن الوحدة العربية.
- "رفض وعد بلفور ورفض الهجرة اليهودية إلى فلسطين ورفض كل دعوى لليهود فيها."^{٥٣}

ويذكر دروزة أن السلطات البريطانية حاولت جاهدة تحويل المؤتمر عن وجهته الوحودية، ولا سيما فيما يختص بربط فلسطين بسورية تسهيلاً لتنفيذ المشروع الصهيوني. وعندما فشلت في ذلك قررت الحد من تأثير مداولاته، فمنعت الوفدين

وقبيل وصول العارف إلى القدس بأشهر معدودة، كان الأمير فيصل بن الحسين قد دخل دمشق في أول تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٨ على رأس قوات الثورة العربية. فكان لهذا الحدث التاريخي دوي عظيم في نفوس الشعوب العربية، وخصوصاً في أرجاء سورية الطبيعية، بما في ذلك فلسطين. لم يدم العهد الفيصلي في سورية طويلاً (كانت نهايته في ٢٥ تموز/يوليو ١٩٢٠ باحتلال فرنسا دمشق وطردها فيصل منها)، لكنه كان خلال وجوده الوجيه محط أحلام الوجدانيين والاستقاليين العرب وآمالهم.

ومن أول ردات الفعل في فلسطين على سياسة إقامة وطن قومي يهودي فيها أن أنشأ فريق من زعماء القدس من المسلمين والنصارى سنة ١٩١٧، بُعيد الاحتلال البريطاني بأيام قليلة، جمعية سموها الجمعية الإسلامية المسيحية،^{٤٧} هدفها المطالبة بحكم وطني استقلالي، ورفض الوطن القومي اليهودي، ومناوأة الهجرة اليهودية وبيع الأراضي لليهود الوافدين، والتشديد على الحقوق الطبيعية الشرعية لأهل البلد العرب الذين يشكلون الأكثرية الساحقة فيه. وأخذت مدن فلسطين العربية الأخرى تحذو حذو القدس، بحيث ما لبثت أن أسست فيها جميعها جمعيات مماثلة مختلطة باسم الجمعية الإسلامية المسيحية.

وتزامن مع هذا النشاط قيام شباب القدس بإنشاء ناديين قوميين، سموا أحدهما النادي العربي، على غرار النادي العربي الذي كان قد أقيم في دمشق عقب دخول فيصل، والآخر المنتدى الأدبي.^{٤٨} وأشرف على النادي العربي المقدسي شباب من آل الحسيني وحلفائهم، وعلى رأسهم الحاج أمين الحسيني، بينما أشرف على المنتدى الأدبي شباب من آل النشاشيبي وحلفائهم. وأقام الحاج أمين علاقة وثيقة بالعهد الفيصلي عن طريق الدكتور حافظ كنعان الذي كان منتسباً إلى جمعية الفتاة السرية، وممثلها في نابلس. وكان الحاج يزور هذا الأخير في عيادته في نابلس "لتناول الحديث وتلقي التوجيهات والمساعدات."^{٤٩} ويذكر محمد عزة دروزة في هذا الصدد أنه تعرف

البيديري تحريرها، وصدر العدد الأول منها في ١٩١٩/٩/٨. وكانت "سورية الجنوبية" أول صحيفة وطنية تصدر في القدس بعد الاحتلال وخلال فترة الحكم العسكري الانتقالي، وكانت أسبوعية، ثم صارت نصف أسبوعية، وكانت تطبع في مطبعة دير الروم في القدس.^{٦٠} وحملت "سورية الجنوبية" على السياسة البريطانية المؤيدة للصهيونية، وطالبت بإلغاء وعد بلفور، الأمر الذي أثار حفيظة السلطات البريطانية التي عمدت إلى تعطيل الصحيفة عدة مرات.

توثقت العلاقة بين العارف والحاج أمين الحسيني من خلال تعاونهما في نشاطات النادي العربي. واستحوذت على النفوس الأبناء عن تطور الأوضاع في سورية، إذ أخذت بريطانيا تسحب جيوشها منها فسخاً لفرنسا مجال إدخال جيوشها بدلاً منها. وتواترت الأخبار عن ضغوط قاسية على الأمير فيصل (خلال زيارة قام بها في الخريف للندن وباريس) لقبول نمط من الانتداب الفرنسي على سورية يتعارض كل التعارض مع قرارات المؤتمر السوري العام في حزيران/يونيو ١٩١٩. وكان المؤتمر قد أوقف جلساته بعد اتخاذه هذه القرارات، وتألّفه وفداً من أعضائه لمقابلة لجنة الاستفتاء الأميركية التي أوفدها الرئيس ولسون، لكنه عاد فقرر عقد دورة جديدة في آذار/مارس، ١٩٢٠ عقب تدهور الأوضاع السورية، عُرفت بـ "دورة الاستقلال". وقرر المؤتمر إعلان استقلال سورية التام بحدودها الطبيعية وبملكية الأمير فيصل على أساس نيابي دستوري لامركزي، مع رفض الوصاية، أو الحماية، واستنكار فصل فلسطين ووعد بلفور. ووقع أعضاء المؤتمر هذا القرار وقدموه إلى الملك فبوع عليه، وتلا محمد عزة دروزة سكرتير المؤتمر قراراته من شرفة البلدية على الجماهير المحتشدة في ساحة المرجة صباح الثامن من آذار/مارس ١٩٢٠.^{٦١} ابتهج الناس في القدس بإعلان استقلال سورية الطبيعية، ومبايعة فيصل ملكاً عليها. ويبدو أن المشرفين على النادي العربي وحلفاءهم قرروا التعبير عن تأييدهم لهذا الحدث، وعن

الذين ألقيا المؤتمر لزيارة دمشق وباريس من السفر.^{٦٢} ويشيد دروزة بمواقف العديد من أعضاء المؤتمر الوجدانية الصلبة التي تصدت للمساعي البريطانية، كما يخص بالذكر الحاج أمين الحسيني وشباب النادي العربي المقدسي الذين كانوا "متحمسين لذلك الخط [الخط القومي الوجداني الاستقلالي] أشد الحماس".^{٦٣}

هذه هي الأجواء التي سادت القدس عشية عودة صاحبنا العارف إليها. أمّا هو فما إن استقر في مسقط رأسه حتى اختار الانضمام إلى النادي العربي على نادي المنتدى. ولعل ما جذبته إلى الأول شدة حماسه الوجدانية التي أشار إليها دروزة. في هذه الأثناء وعلى الصعيد الدولي، تم في حزيران/يونيو ١٩١٩ توقيع كل من معاهدة فرساي التي أنهت الحرب العالمية الأولى، وميثاق عصبة الأمم الذي نص على قيام نظام "الانتداب" في بعض ولايات الدول المنهزمة، على أن "يكون الاعتبار الرئيسي في اختيار الدولة المنتدبة وفق ما ترغب فيه الجوالي التابعة سابقاً للإمبراطورية العثمانية".^{٦٤}

وطالب الرئيس الأميركي ولسون بإرسال لجنة تحقيق إلى المشرق للتأكد من رغبات سكان الولايات العربية فيه. وفي إثر ذلك دعا الأمير فيصل إلى "عقد مؤتمر سوري عام يتمثل فيه أهل جميع أنحاء سورية داخلاً وساحلاً وجنوباً ليقول كلمة جماعية في ذلك".^{٦٥} وعقد المؤتمر، فعلاً، في دمشق في حزيران/يونيو ١٩١٩، وكان هناك مسلمات لم يطل النقاش فيها.... مثل: الاستقلال التام والوحدة السورية بحدودها الطبيعية، ورفض وعد بلفور ودعاوى اليهود في فلسطين، والإصرار على عدم فصل فلسطين بخاصة عن سورية.^{٦٦} أمّا الدولة المنتدبة فتكون الولايات المتحدة للمساعدة والإرشاد الفني فقط، وإن تعذر، تُسمى بريطانيا على الشروط نفسها، مع رفض أي دور لفرنسا رفضاً قاطعاً.^{٦٧}

وفي أيلول/سبتمبر ١٩١٩ قرر النادي العربي في القدس إصدار صحيفة باسم "سورية الجنوبية" تكون لسان حاله. وتولى العارف ومحمد حسن

والعارف بالسجن عشرة أعوام، ولا صحة لما ذكر عن الحكم عليهما بالإعدام.^{٦٦} كان لقاء الحسيني دروزة في دمشق، طبعاً، لقاء زملاء أصدقاء حميمين. لكن دروزة لم يكن قد التقى بعد "رفيق" الحاج أمين، أي صاحبنا العارف. ويقول دروزة في ذلك: "... وقد تعرفنا به في دمشق حينما جاء مع الحاج أمين هاربين من مطاردة الإنكليز وتعاوناً معه في سبيل قضية فلسطين.... وقد لمحنا فيه روحاً قومية ثورية مع هدوء واتزان، وكان على درجة حسنة من الثقافة التركية والعربية."^{٦٧} ويبدو أنه بعد فترة وجيزة من وصول الحسيني والعارف إلى دمشق "أرسلت القدس توكيلاً للحاج والعارف" لتمثيلها في المؤتمر السوري.^{٦٨} وتفصيل ذلك أنه لم تجر انتخابات لممثلي المؤتمر سوى في سورية الداخلية، أي ولايتي سورية وحلب سابقاً، بسبب منع السلطات البريطانية إجراء انتخابات لهذا الغرض في فلسطين، ومنع السلطات الفرنسية إجرائها في المنطقة الساحلية السورية وفي لبنان، واستعويض عن الانتخابات في هذه المناطق بتوكيلات من الجمعيات والأندية المحلية الموقّعة من عدد كبير من ذوي الرأي والشأن. وبالنسبة إلى ممثلي القدس في المؤتمر فإن التوكيلات كانت في الأصل باسم كل من سعيد الحسيني وراغب النشاشيبي وعارف الدجاني ويعقوب فراج، لكن هؤلاء لم يأتوا إلى دمشق، فحل الحسيني والعارف محلهم كما ذكرنا.^{٦٩}

ويصف محمد عزة دروزة بإسهاب دور جمعية الفتاة السرية التي كان ينتسب إليها خلال العهد الفيصلي، والتي شغل فيها عضوية هيئتها المركزية وسكرتاريتها من آب/أغسطس ١٩١٩ إلى آذار/مارس ١٩٢٠. ويذكر، فيما يذكر، انضمام أعضاء جدد إلى الجمعية في هذه الأثناء هم: الحاج أمين الحسيني، وعارف العارف، ورياض الصلح، وجعفر العسكري، وطه الهاشمي!!^{٧٠} ويقول دروزة عن جمعية الفتاة إنها كانت "حزب عهد فيصل وعماده" في إدارة الدولة واختيار الموظفين وانتشار نفوذها عبر معتمدين على رأس فروع في

سخطهم المتزايد على بريطانيا جزاء سياستها المؤيدة للصهيونية، واختاروا موسم النبي موسى المقبل في القدس خلال فترة عيد الفصح لتنفيذ ما صمموا عليه. وكان موسم النبي موسى أضخم مهرجان شعبي إسلامي سنوي عرفه البلد يجتمع فيه في نيسان/أبريل من كل سنة الآلاف القادمة من عشرات القرى هازجة، حاملة البيارق وقارعة الطبول قبل الهبوط إلى غور الأردن بالقرب من أريحا للإقامة بضعة أيام عند مقام النبي موسى الذي بناه السلطان الظاهر بيبرس لهذا الغرض في أواسط القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) بعد انتصاراته على الإفرنج.^{٦٦}

خطب كل من الحاج أمين، والعارف، ورفيق ثالث لهم هو عمر الصالح البرغوثي،^{٦٦} في الجماهير المحتشدة في أول أيام موسم النبي موسى في القدس في الرابع من نيسان/أبريل ١٩٢٠. ولم يلبث الوضع الأمني أن انفجر، وهاجم العرب الحي اليهودي في البلدة القديمة، وأسفرت الصدامات عن مقتل ٥ يهود وجرح ٢١١ يهودياً، وعن مقتل ٤ عرب وجرح ٢١ عربياً، وسقط الضحايا العرب على أيدي قوات الأمن البريطانية. وكان هذا أول حادث دموي يقع في البلد بعد الاحتلال احتجاجاً على السياسة البريطانية، وبداية النضال الفلسطيني الفعلي ضد الانتداب. وتألّفت لجنة تحقيق عسكرية بريطانية للبحث في أسباب الانفجار، فحددت الأسباب التالية: خيبة أمل العرب نتيجة عدم تحقق وعود الاستقلال التي أعطيت لهم خلال الحرب؛ الخوف من أن تؤدي الهجرة اليهودية إلى سيطرة اليهود السياسية والاقتصادية على البلد؛ نمو الشعور الوحدوي العربي في ضوء إعلان استقلال سورية المتحدة بملكية فيصل.^{٦٤}

واعتبرت السلطات العسكرية الحسيني والعارف والبرغوثي مسؤولين عن التحريض على العنف، وحاولت اعتقالهم، فتمكنت من اعتقال البرغوثي،^{٦٥} بينما نجح كل من الحسيني والعارف في الهرب واللجوء أولاً إلى شرق الأردن ومنها إلى دمشق. وحكمت المحكمة غيابياً على كل من الحسيني

أنحاء سورية.^{٧١} ويشير تماري إلى الجمعية الفلسطينية ويصفها بأنها "امتداد" لجمعية فلسطين السرية، مع أن العكس هو الصحيح. ويصف تأليفها بـ "اللحظة المفصلية التي افترق فيها النضال من أجل سورية الموحدة عن مصير فلسطين الانتداب." ويسهب في الاستشهاد بما كتبه رشيد الخالدي في دعم هذا التحليل،^{٧٢} إلا إن كليهما يحمل الأمر أكثر مما يحتمل، ذلك بأنه مما لا يقبل الشك أن اعتماد جماعة فتى فلسطين إنما كان على دوام العهد الفيصلي، وأن فشل تجربتهم ما كان إلا من أول نتائج سقوط هذا العهد السلبي على النضال ضد الانتداب البريطاني في فلسطين.

هـ) خدمة العارف في السلك الإداري خلال الانتداب البريطاني (١٩٢٢ - ١٩٤٨)

لم تمض على أحداث موسم النبي موسى في القدس سوى بضعة أسابيع حتى قرر المجلس الأعلى لمؤتمر الصلح الذي عُقد في مدينة سان ريمو الإيطالية في ٢٥ نيسان/أبريل ١٩٢٠ منح بريطانيا الانتداب على فلسطين، متغاضياً بذلك عن رفض عرب فلسطين سياسة الوطن القومي اليهودي التي كانت جوهر سياسة بريطانيا في فلسطين. ولم يمض زمن طويل على قرار مؤتمر سان ريمو حتى أنهت بريطانيا حكمها العسكري على البلد، وأحلت محله إدارة مدنية برئاسة "مندوب سام" هو السير هربرت صامويل السياسي البريطاني اليهودي الصهيوني والوزير السابق. وبأشر صامويل تنفيذ سياسة الوطن القومي اليهودي في أول تموز/يوليو ١٩٢٠. وما إن قبض صامويل على دفة الحكم في البلد حتى أصدر عفواً عاماً عن المتهمين في أحداث موسم النبي موسى، بمن فيهم الحسيني والعارف والبرغوثي، في محاولة لإرضاء العرب. وصودف أن توفي في آذار/مارس ١٩٢١ مفتي القدس كامل الحسيني، أخو الحاج أمين الحسيني

ويغتنم دروزة و"بعض الإخوان" فرصة وجود عدد كبير من رجال فلسطين وشبابها في دمشق، ويقترحون على سليم عبد الرحمن دعوتهم إلى اجتماع عام في النادي العربي، فيجتمع نحو أربعين، بينهم من كان موظفاً، ومنهم من كان عضواً في المؤتمر السوري، ويتحدث الحضور في القضية الفلسطينية، وفي وجوب التكاتف لتوجيه الأذهان إليها والتوعية بخطورتها، وينتهي الأمر إلى تأليف الجمعية الفلسطينية، أو جمعية فلسطين، وانتُخب لها هيئة إدارية مؤلفة من دروزة والحاج أمين والعارف ومعين الماضي.^{٧٣}

إلى جانب جمعية فلسطين العلنية ألف فريق من أعضائها جمعية سرية سموها فتى فلسطين غايتها القيام ببعض الأعمال المسلحة على حدود فلسطين لتُشعر اليهود والإنجليز بأن أهل فلسطين سيسرون في هذه الطريق من أجل منع تنفيذ المخططات الإنجليزية الصهيونية الاستعمارية. أما الذين ألفوا هذه الجمعية فكانوا أعضاء الهيئة الإدارية إياهم.^{٧٤}

واستمدت جمعية فتى فلسطين "بعض المال والمعدات من الهيئة المركزية لجمعية الفتاة"، وهيأت عصابة صغيرة بإمرة محمد علي دروزة (شقيق محمد عزة). وكانت أولى حركاتها على حدود سمخ جنوبي بحيرة طبرية في أواسط حزيران/يونيو ١٩٢٠. وكان الخبير الزراعي حاييم كالفارسكي، اليهودي الناشط في مجال الاتصالات الصهيونية بالعرب، في زيارة لدمشق في هذه الأثناء. وخطت جمعية فتى فلسطين لإعداد كمين له حين يعود إلى فلسطين "حتى نخلص من داعية ذلق اللسان... شيد الخبث... ويكون في ذلك نذير وعبرة للصهيونية"، إلا إنه عاد من طريق بيروت لا من طريق القنيطرة حيث نُصب الكمين له.^{٧٥} ولم يلبث الوضع في سورية أن تأزم بسبب زحف الجيش الفرنسي إلى دمشق وسقوط العهد. وغادر دروزة ورفاقه دمشق مع من غادروها، كما سيلي، "فلم يكن بالإمكان عمل شيء كبير"،^{٧٦} بحسب قول الراوي دروزة.

الثانية (١٩٢٦ - ١٩٢٩) انتقله بالإعارة إلى شرق الأردن، حيث تولى منصب السكرتير العام لحكومة الأمير عبد الله بن الحسين، وكان بهذه الصفة عضواً في مجلس الإمارة التنفيدي، إلى جانب رئيس المجلس، ووزير العدل، ومدير الآثار، والمستشار القضائي والمستشار المالي (البريطانيين).^{٨٣} وكانت الحكومة البريطانية قد أعلنت في سنة ١٩٢٣ استعدادها للاعتراف بـ "حكومة مستقلة" في شرق الأردن بإمارة عبد الله بن الحسين شرط إبرام اتفاق بذلك بين الطرفين (أي بريطانيا والأمير). ووقع هذا الاتفاق في القدس في ٢٠ شباط/فبراير ١٩٢٨، وصادق المجلس التشريعي في عمان عليه في نيسان/أبريل ١٩٢٩.^{٨٤} وتذكر عدة مصادر أن العارف عارض هذا الاتفاق،^{٨٥} بينما يذهب العودات إلى أن "الإنكليز اتهموه بتشجيع المعارضة وتحريض رجالها على رفض المعاهدة [كذا]، فأعادوه إلى فلسطين".^{٨٦} لقد ترك العارف مخطوطة لم تنشر بعنوان "مذكرات: ثلاث سنوات في عمان (١٩٢٦ - ١٩٢٩)،"^{٨٧} لكن لم يتسن لنا الاطلاع عليها للوقوف على تفصيل ما حدث.

وتمتد المرحلة الثالثة من سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٤٣ أمضاها في جنوب البلد، وعمل خلال الأعوام العشرة الأولى منها قائمقاماً في قضاء بئر السبع، وفي الأعوام التالية قائمقاماً في قضاء غزة.^{٨٨} وانكب في أثناء إقامته المدينة ببئر السبع على دراسة "عادات البدو وأخلاقهم وطباعهم وطرق تقاضيههم"، فألف في ذلك كتابين: أولهما "القضاء بين البدو" (١٩٣٣)، وثانيهما "تاريخ بئر السبع وقبائلها" (١٩٤٣)، وبعد انتقاله إلى غزة ألف "تاريخ غزة" (١٩٤٣)، و"الموجز في تاريخ عسقلان" (١٩٤٣)؛ وطُبعت هذه الكتب جميعاً في مطبعة بيت المقدس. ويشير المؤلف في صدر كتابه عن غزة إلى "أمنية" الوحدة العربية والاستقلال "التي حملتها بين أضلعي"، ويعبر عن سروره بأن هذه الأمنية "أخذت هذه الأيام تطل من وراء سحاب" (لعله

من أبيه،^{٧٧} وكان الأخير قد عاد إلى القدس بعد صدور العفو عنه فرشحته عائلته لخلافة أخيه، وعُين مفتياً بموافقة المندوب السامي صامويل. أمّا العارف فقد رغب بعد عودته في ممارسة الصحافة مرة أخرى، لكن السلطات لم تسمح له بذلك، بل اشترط عليه عدم الاشتغال بالسياسة، و"عرضوا عليه عدداً من الوظائف الحكومية، فرفضها في بادئ الأمر. ثم عاد لقبها، عندما اعتزموا نفيه من البلاد، مشترطاً عليهم أن يحتفظ بمبادئه السياسية. وهكذا كان."^{٧٨} ويكتب دروزة في هذا الصدد: "ولمّا عُفي عنهما [عن الحسيني والعارف] وعُين الحاج أمين مفتياً... تقلب [العارف] في وظائف ومراكز عديدة طيلة مدة الانتداب، ولم يكن له مشاركة في نشاط سياسي ولكنه ظل محتفظاً بخطه القومي وإخلاصه لقضية فلسطين العربية."^{٧٩} والغريب أن تماري بادر إلى التعليق على ما ذكره دروزة بقوله: "يتضح من الملاحظة الأخيرة [أي، ولم يكن له مشاركة في نشاط سياسي] المشحونة بالمعاني [كذا] أن دروزة الذي استمر نضاله الدؤوب من أجل ضم فلسطين إلى سورية، حافظ على مودته للعارف واعتبره وطنياً صادقاً، إلا إنه في الوقت نفسه، قدر أن العارف اتخذ طريقاً آخر لحياته، وأدعن لفصل فلسطين عن بلاد الشام."^{٨٠} ووجه الغرابة أن كلام دروزة لا يحتمل ما ذهب إليه تماري في تأويله، نظراً إلى ما وضعته السلطات من شروط على العارف، إضافة إلى بقاءه على ولائه لفكرة الوحدة العربية، كما يتبين من نشره كتابه "رؤياي"، الداعي إليها خلال الانتداب ذاته سنة ١٩٤٣، كما ذكر سابقاً. وتنقسم سيرة العارف خلال فترة الانتداب البريطاني (١٩٢٠ - ١٩٤٨) إلى أربع مراحل: امتدت المرحلة الأولى من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٦ عمل خلالها قائمقاماً لأقضية جنين ونابلس وبيسان ويافا^{٨١} تبعاً. وفي هذه المرحلة تزوج في القدس برفيقة حياته صائمة البورنو سنة ١٩٢٢.^{٨٢} وشهدت المرحلة

صاحبنا خلال سنة ١٩٤٧ كتاباً بعنوان "تاريخ الحرم القدسي"،^{٩٣} واشترى، كما تخبرنا ابنته، في السنة نفسها، بيتاً في حي البقعة العربي إلى الجنوب الغربي من المدينة القديمة خارج الأسوار وكان يأمل أن يقضي فيه بقية حياته، فجاءت الحرب ولم يتمكن من سكناه.^{٩٤}

و) العارف خلال أحداث النكبة

اندلع القتال في فلسطين بعيد صدور توصية الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧ بتقسيمها إلى دولتين: دولة عربية ودولة يهودية، على أن تخضع مدينة القدس وجوارها لنظام خاص بإشراف الأمم المتحدة (Corpus Separatum). واستمر القتال من دون انقطاع تقريباً في الأسابيع الأخيرة من سنة ١٩٤٧ وطوال سنة ١٩٤٨ حتى توقيع اتفاقيات الهدنة الدائمة بين إسرائيل من ناحية، وكل من مصر (شباط/فبراير ١٩٤٩) ولبنان (أذار/مارس ١٩٤٩) وشرق الأردن (نيسان/أبريل ١٩٤٩) وسورية (تموز/يوليو ١٩٤٩) من ناحية أخرى، علماً بأن العراق سحب جيشه من منطقة تمر كزه في جبال نابلس من دون توقيع اتفاقية هدنة مع إسرائيل بالتنسيق مع شرق الأردن، ومن خلاله مع إسرائيل. وكان العارف يحتل في الأعوام الأخيرة من الانتداب منصب مساعد حاكم لواء القدس البريطاني، كما ورد توأ.

وتنقسم فترة القتال الممتدة منذ قرار التقسيم (٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧) حتى اتفاقيات الهدنة (شباط/فبراير ١٩٤٩ - تموز/يوليو ١٩٤٩) إلى ست مراحل هي:

أولاً: مرحلة الحرب "الأهلية"، وفيها قام اليهود بتنفيذ خطة حربية هجومية أعدوها سابقاً، عرفت بـ "خطة دالت" (Plan Dalet)،^{٩٥} هدفها احتلال أكبر مساحة من فلسطين بالقوة العسكرية، إضافة إلى المساحة التي "وهبتها" الأمم المتحدة للدولة اليهودية بموجب قرار التقسيم. وامتدت هذه المرحلة من ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧

يشير هنا إلى تصريحات للسياسي العراقي المخضرم نوري السعيد عن وجوب تحقيق اتحاد عربي، أدلى بها خلال سنة ١٩٤٣، أي سنة صدور كتاب صاحبنا عن غزة). ويستطرد العارف في كلامه عن الوحدة وعن توليه التاريخ لبئر السبع وغزة وعسقلان فيقول: "أنا امرؤ طوحت به يد الأقدار في هذه الديار: ديار غزة وبئر السبع.... فرأيت من واجبي - كعربي يحب قومه وبلاده، ووطنيّ يتمنى من صميم فؤاده أن تستقل بلاده وتتحد - أن أنقل ما عرفته عن هذه البقعة.... إلى أبناء قومي الآخرين.... وحبذا لو حدا كل قطر من هذه الأقطار [العربية] هذا الحدو فحدثنا أبناءه الأحرار عن بلادهم.... إننا إذا ما اخترنا هذا السبيل القويم.... اهتدينا إلى ضالتنا المنشودة."^{٩٦} وهذا كله إنما يعزز ما أكدناه من قبل فيما يتعلق باستمرار العارف في التزام فكرة الوحدة العربية على الرغم من عمله في سلك الإدارة المدنية الانتدابية خلافاً لما ذهب إليه البعض. وفي سنة ١٩٤٣ أيضاً نشر لأول مرة كتابه "رؤياي" الذي كان وضعه سنة ١٩١٨، ويقول في شرح سبب تأخر نشره (من دون أن يشفي الغليل): "ذلك لأن الأحداث التي حدثت في بلاد العرب بوجه عام، وفي فلسطين بوجه خاص، بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، حالت دون طبعه ونشره في حينه." ويضيف: "ولمّا أتيت له أن يرى النور [أي سنة ١٩٤٣]، تلتفتته الأيدي فنفدت جميع نسخه المطبوعة في أيام قلائل."^{٩٧}

أمّا المرحلة الرابعة والأخيرة من سيرة صاحبنا في أثناء الانتداب، والتي تمتد من سنة ١٩٤٣ إلى سنة ١٩٤٨، فقد أمضاها قائماً في قضاء رام الله من لواء القدس. وكان لواء القدس يضم قضاءين آخرين غير قضاء رام الله هما قضاء الخليل وقضاء القدس ذاتها.^{٩٨} وفي الأعوام الأخيرة من الانتداب تم ترفيع العارف إلى منصب مساعد حاكم لواء القدس البريطاني،^{٩٩} وهو المنصب الذي كان يحتله عند انتهاء الانتداب في ١٥ أيار/مايو ١٩٤٨. وألف

اتفاقيات الهدنة الدائمة بين إسرائيل والدول العربية إلى أن عينه الملك عبد الله رئيساً لبلدية القدس سنة ١٩٤٩، وهو منصب أحرزه مرة أخرى عن طريق الانتخاب سنة ١٩٥١، وظل فيه لغاية سنة ١٩٥٥.

وُجِدت في القدس وجوارها عند بدء القتال في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧ قوات مسلحة لعدة أطراف، أولها القوات الشرعية، أي الجيش البريطاني، جيش السلطة الانتدابية الحاكمة وقوات الأمن (البوليس) التابعة لها. وضم الجيش البريطاني المرابط في فلسطين وحدات "الجيش العربي" (Arab Legion) التابع للملك عبد الله بن الحسين في شرق الأردن، والتي انتشرت في مختلف أنحاء البلد في أثناء الانتداب، لكن بقيادة الجيش البريطاني المباشرة. وفي المقابل كانت القوات غير الشرعية اليهودية والعربية، فهناك المنظمات اليهودية العسكرية، وعلى رأسها الهاغاناه، جيش أعلى سلطة يهودية في البلد، وهي الوكالة اليهودية (Jewish Agency)، ووحداته الضاربة (البالماخ)، وإلى جانبها المنظمتان الإرهابيتان: الإرعون وعصابة شتيرن. وهناك قوات الجهاد المقدس التابعة لأعلى سلطة فلسطينية سياسية (الهيئة العربية العليا) التي كان يرئسها مفتي القدس الحاج أمين الحسيني المنفي من فلسطين، و"فرقة التدمير"، أي وحداتها الضاربة في القدس. وإلى جانب هذه وتلك أخذت وحدات "جيش الإنقاذ" تدخل البلد ابتداءً من كانون الثاني/يناير ١٩٤٨. وجيش الإنقاذ هذا هو جيش المتطوعين غير النظامي التابع لجامعة الدول العربية التي كان مقرها القاهرة، وأشرفت عليه لجنة عسكرية عربية مقرها دمشق برئاسة اللواء الركن العراقي إسماعيل صفوت باشا، يعاونه المفتش العام اللواء الركن العراقي طه باشا الهاشمي، بينما كان قائد جيش الإنقاذ الميداني هو الضابط اللبناني فوزي القاوقجي.

كان عدد سكان مدينة القدس من اليهود عند صدور قرار التقسيم (٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧) ضمن حدود المدينة البلدية (Municipal)

حتى ١٥ أيار/مايو ١٩٤٨ عندما انتهى الانتداب البريطاني وأعلن اليهود قيام دولة إسرائيل بموجب قرار التقسيم إياه اسماً وتحججاً.

ثانياً: مرحلة القتال الأولى بين وحدات من الجيوش العربية النظامية التابعة لشرق الأردن وسورية والعراق ومصر، والتي اجتازت حدود فلسطين الانتدابية للتصدي لـ "خطة دالت"، وبين القوات اليهودية الزاحفة، وامتدت هذه المرحلة من ١٥ أيار/مايو ١٩٤٨ لغاية قيام الهدنة الأولى الموقته في ١١ حزيران/يونيو ١٩٤٨ التي دعا إليها مجلس الأمن.

ثالثاً: مرحلة الهدنة الموقته الأولى التي امتدت من ١١ حزيران/يونيو ١٩٤٨ إلى ٨ تموز/يوليو ١٩٤٨.

رابعاً: مرحلة القتال الذي استؤنف بعد انتهاء الهدنة الموقته بين القوات العربية وإسرائيل، والتي امتدت من ٨ تموز/يوليو ١٩٤٨ حتى ١٨ تموز/يوليو ١٩٤٨.

خامساً: مرحلة الهدنة الموقته الثانية التي تخللها أعنف معارك شهدتها الحرب طرّاً، وهي مرحلة امتدت من ١٨ تموز/يوليو ١٩٤٨ لغاية كانون الثاني/يناير ١٩٤٩.

سادساً: مرحلة تقدمت فيها القوات الإسرائيلية المنتصرة لتحتل مساحات شاسعة من فلسطين خارج حدود الدولة اليهودية المنصوص عليها في قرار التقسيم. وقد تزامن مع تدهور الحال اضطرار الدول العربية إلى عقد اتفاقيات هدنة دائمة تباعاً بينها وبين إسرائيل خلال الأشهر الفاصلة بين شباط/فبراير ١٩٤٩ وتموز/يوليو ١٩٤٩.

ظل صاحبنا العارف في منصبه في رام الله قائماً ومساعداً لحاكم لواء القدس البريطاني طوال المرحلة الأولى من مراحل القتال الست، وحافظ على منصبه هذا على امتداد المراحل الخمس المتعاقبة بقوة الاستمرار وبقرار السلطات الشرق الأردنية (الملك عبد الله) التي هيمنت على قطاع القدس بعد انسحاب السلطات البريطانية منه في ١٤ أيار/مايو ١٩٤٨.

وظل العارف على هذه الحال إلى ما بعد عقد

البالماخ قرى عربية، وذاع الخبر أن عبد القادر قد حوصر. ويحدثنا العارف: "وانتشر رسل القرية... يستفزون القوم، ويستصرخونهم للنجدة. فلبى هؤلاء النداء.... وبلغت حماسة الناس إلى درجة لا توصف، فرأيتُ بأم عيني عندما كنت في [قرية] سنجل و[قرية] ترمسعيا أستفز المناضلين لنجدة إخوانهم المحصورين، فتىّ راح يتوسل إلى أبيه الشيخ كي يسمح له بالذهاب إلى ميدان الوغى بدلاً منه. وأبى الشيخ في البدء إلا أن يذهب هو ثم عاد فاستجاب لرجاء ولده."^{٩٨}

ويقول العارف إن قوات الجهاد المقدس نصبت، في أول آذار/مارس ١٩٤٨، كميناً لوحدة من الهاغاناه انطلقت من مستعمرة عطروت (شمال القدس)، فقتلت سبعة عشر من أفرادها، وتأتي مصفحة للبوليس البريطاني إلى مكان المعركة، ويحمل رجالها جثث القتلى في سيارة كبيرة "وجاؤوا بها إليّ.... فأمرت بتسليمها إلى أصحابها. وثبت من أوراق الهوية التي وجدناها في جيوب القتلى [اليهود] أن خمسة منهم من موظفي مصلحة البريد في القدس. وقد حصلوا على إذن من رؤسائهم كي يتغيبوا عن العمل لقضاء مصالحهم العائلية."^{٩٩}

ويخبرنا العارف أن حاكم لواء القدس المستر بولوك أراد، في ١٠ آذار/مارس ١٩٤٨، الوصول إلى مطار اللد عن طريق رام الله، فبعث إلى صاحبنا رسوياً "يرجوني أن أتولى حمايته أثناء مروره بمنطقتي.... فأرفقته بعدد من المجاهدين الذين رافقوه الطريق كلها من اللحظة التي دخل المنطقة فيها إلى أن خرج منها."^{١٠٠}

واحتدم القتال في القدس بين الفريقين، وبلغ ذروته في ١٢ آذار/مارس. فوجه الحاكم العسكري البريطاني المسؤول عن قطاع القدس إنذاراً قال فيه "أنه سيطلق النار على الفريقين من غير تمييز إذا لم يلتزم جانب السكينة." ويذكر العارف أن الحاكم "بعث إليّ وإلى زملائي الآخرين، من حكام ومديرين، نسخاً كثيرة عنه [أي عن الإنذار] طالبا منا إذاعة محتوياته على الأهلين. ولكن لم أعبأ بقوله، إذ كنت من القائلين بأن القتال كان يومئذ

المصطنعة نحو ١٠٠,٠٠٠، ونقول "المصطنعة" لأن حكومة الانتداب أخرجت من نطاق بلدية القدس قرى عربية متاخمة لضمان أكثرية يهودية داخلها، وأصبح عدد السكان العرب داخل حدود البلدية بذلك نحو ٦٠,٠٠٠ نسمة.^{٩٦} وعاش معظم يهود القدس في أحياء المدينة الحديثة الشمالية الغربية خارج أسوار المدينة القديمة باستثناء حي يهودي صغير داخل الأسوار. وكان العرب يعيشون في سائر أحياء المدينة ويشكلون الأكثرية العظمى داخل البلدة القديمة ذاتها وفي الريف المحيط بالمدينة المقدسة. ولم يكن لليهود وجود يذكر في هذا الريف خلا مستعمرتين صغيرتين (نفيه يعقوف وعطروت) شمالي المدينة على الطريق المؤدية إلى رام الله وجبل نابلس، وأربع مستعمرات صغيرة (كتلة كفار عتسيون) جنوبي المدينة على الطريق المؤدية إلى مدينة الخليل، ومستعمرتين قليلتي السكان غرباً في جوار قرية القسطل العربية على الطريق الجبلية المؤدية إلى يافا وتل أبيب على ساحل البحر الأبيض المتوسط.^{٩٧}

وكانت الاستراتيجية الفلسطينية العسكرية بالنسبة إلى القدس دفاعية تقوم على حصار أحياء المدينة اليهودية وتجويع سكانها، بينما كانت الاستراتيجية العسكرية اليهودية هجومية تقوم على احتلال الأحياء العربية في المدينة من الداخل، ومن ثم ضم المدينة بأسرها إلى المناطق اليهودية الساحلية عبر ممر بري تشقه القوات اليهودية وسط الريف الفلسطيني العربي المحيط بالقدس ويربطها بتل أبيب وجوارها اليهودي. وكان قائد قوات الجهاد المقدس في القدس وجوارها عبد القادر الحسيني الذي كان مقره في بير زيت في جوار رام الله، حيث كان صاحبنا العارف يقيم.

اندلع القتال في القدس واتسع فور صدور قرار التقسيم، ودار حول المستعمرات المذكورة شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، وداخل المدينة القديمة المسورة، وبين الأحياء السكنية خارجها. وحضر العارف في أواخر كانون الثاني/يناير ١٩٤٨ معركة جنوبي غربي مدينة رام الله العربية، الواقعة شمالي القدس، هاجمت فيها قوات من

العربي المرابطين في رام الله، فإمّا أن يخفّوا لنجدة المناضلين في قطاع القسطل نفسه... أو أن يهاجموا مستعمرتي عطروت ونفيه يعقوف، فيخفف الضغط عن العرب. ولقد تحدثت في هذا الموضوع مع القائد أحمد صدقي الجندي قائد اللواء الرابع، والزعيم [البريطاني] غلوب باشا رئيس أركان حرب الجيش العربي، وكان هذا هو الكل بالكل في هذه الشؤون، ولكن حديثنا لم يأت بالفائدة المطلوبة، وقيل لنا إنه لم يكن في مقدور الجيش العربي أن يقوم بأية حركة عداوية ضد اليهود قبل انتهاء الانتداب البريطاني في ١٥ أيار [مايو].^{١٠٤}

وتتوالى الكوارث، فيستشهد عبد القادر في معركة استرداد القسطل، وتقع مذبحه دير ياسين الشهيرة (٩ نيسان/أبريل). ودير ياسين قرية في جوار القدس إلى الغرب منها.^{١٠٥} ويفشل فوزي القاوقجي في أول معركة مع العدو الصهيوني يتولى شخصياً إدارتها، وذلك في محاولة اقتحام مستعمرة مشمار هعيمك (٦ - ١٢ نيسان/أبريل) في وسط فلسطين. وفي ١٨ نيسان/أبريل تسقط أول مدينة عربية (طبرية) في يد اليهود تنفيذاً لخطة دالت في شمال شرق البلد، ويسري الذعر في نفوس القوم في القدس، ويتساءل الناس، بحسب رواية العارف: "أين السلاح؟... أين المال؟ أين القواد يرسمون الخطط، ويديرون دفة القتال؟" وفي ٢٠ نيسان/أبريل يؤلف وفد يكون صاحبنا في عداة للطواف في العواصم العربية و"مباحثة ولاة الأمور وإيضاح حقيقة الحال... ولأول مرة... شم أعضاء الوفد رائحة الفرقة والخلاف بين أعضاء الجامعة [جامعة الدول العربية]. ورأوا، ويا لهول ما رأوا، أن الأمور في جميع البلاد العربية فوضى لا سائس لها ولا زاجر.^{١٠٦}

وقبيل مرافقة الوفد إلى العواصم العربية يذهب العارف مع وفد آخر من سكان منطقة القدس إلى قرية جبع من أعمال جنين حيث مقر قيادة فوزي القاوقجي، "ولفتنا نظره بصورة خاصة إلى الأكام القائمة إلى الشمال والشمال الغربي من القدس، ولا سيما تلك الأكمة التاريخية المعروفة بالنبي صموئيل والتي لم يكن فيها يومئذ سوى أربعين

شراً لا بد منه.^{١٠٧} وفي ١٥ آذار/مارس "ساعت الأمور، وسادت الفوضى بشكل لم يسبق له مثيل، وأصاب أعمال الحكومة... من برق وبريد وهاتف وتنظيف وإنارة وأمن وتموين، شلل مخيف... وعمّ الخوف، وأغلقت المخازن والحوانيت... حتى كان يخيل للمرء، إذا ما مر بشوارع المدينة، أنه في ميدان حرب وقتال."^{١٠٨}

وفي ٢٧ - ٢٨ آذار/مارس تنصب قوات الجهاد المقدس كميناً لقافلة مصفحة لقوات الهاغاناه عائدة إلى القدس من كتلة مستعمرات كفار عتسيون (جنوبي المدينة) وتضيق الخناق على أفرادها البالغ عددهم نحو مئة وستين مسلحاً، فيستنجد هؤلاء بالسلطات البريطانية. ويحدثنا العارف أن رئيسه المستر بولوك الذي كان قد عاد من سفره "بعث إلي رسالة... طالباً مني أن أتصل بعبد القادر الحسيني... وأن أرجوه إيقاف القتال، ولما لم أجد عبد القادر اتصلت بنائبه كامل عريقات... واشترط عريقات، لأجل إيقاف القتال [أي الإفراج عن اليهود المحاصرين]، أن يسلم اليهود للعرب كل ما لديهم من أسلحة وأعتدة"، وهكذا كان.^{١٠٩}

وتدهور الوضع في جوار القدس تدهوراً ذريعاً في الأسبوع الأول من نيسان/أبريل لغير مصلحة العرب نتيجة بدء الهاغاناه بتنفيذ "خطة دالت" بشق ممر يهودي من تل أبيب إلى القدس عبر الاستيلاء على طريق القدس - يافا/تل أبيب، و"تنظيف" جانبيها من القرى العربية المشرفة عليها. وكان أهم هذه القرى قرية القسطل الجبلية (يدل اسمها المعرب من الأصل اللاتيني Castellum على أهميتها الاستراتيجية). وفي ٣ نيسان/أبريل هاجمت قوات البالماخ القسطل هجوماً مفاجئاً واحتلتها، واستمات مناضلو الجهاد المقدس لاستعادتها، غير أن ذخائرهم نفذت، أو كادت. ويروي العارف أن المناضلين في القسطل "أرسلوا رسلهم إلى القدس ورام الله يطلبون الغوث. فأغاثهم هؤلاء، ولكنه غوث لا يبيل الغلة، إذ إنهم هم أنفسهم نفذت ذخائرهم، وكانوا في حاجة للغوث. فرحّت أستنهض همم رجال الجيش

وبانتهاء الانتداب البريطاني في ١٤ - ١٥ أيار/مايو ١٩٤٨ تنتهي أول مرحلة من مراحل النكبة الست التي عدناها سابقاً وتبدأ المرحلة الثانية.^{١١٠} وتشهد فلسطين خلال أيام الانتداب الأخيرة مهزلة من أفجع مهازلها العديدة، إذ بينما كان الجيش البريطاني ينسحب من البلد كانت قوات كل من الهاغاناه والبالماخ ومنظمتي الإرعون وشتيرن الإرهابيتين تزحف نحو عشرات القرى والمدن الفلسطينية وتحتلها بموجب "خطة دالت". وكانت قوات الجيش العربي الأردني تنسحب في آن واحد من مواقعها داخل فلسطين، وتعتبر نهر الأردن شرقاً في الاتجاه المعاكس لتقدم القوات اليهودية كي تتموضع تجاه بلدة أريحا تمهيداً لـ "زحفها" غرباً نحو فلسطين بعد أن تنزع عنها الطاقية البريطانية التي كانت قد اعتمرتها وهي في فلسطين، لتعود ثانية إلى فلسطين معتمرة هذه المرة طاقيتها العربية.

وانسحب الجيش البريطاني من القدس في اليوم الرابع عشر من أيار/مايو، بينما كانت المعارك الطاحنة قائمة خارج أسوار المدينة القديمة. واكتسحت قوات الهاغاناه والبالماخ الأحياء خارج المدينة القديمة، وأطبقت على هذه الأخيرة، وغدت القدس بكاملها على وشك السقوط بين لحظة وأخرى "واشربأت أعناق الفلسطينيين.... نحو عمّان ومنّ فيها.... وراح الناس يتساءلون لماذا لم يأمر الملك عبد الله جيشه بالزحف صوب القدس؟ وكان قبل ذلك يقول.... أنا لا أستطيع أن أسوق جيشي إلى أي جزء من فلسطين قبل انتهاء الانتداب في ١٥ أيار...."^{١١١} ومضت "خمسة أيام صحاح" (١٤ - ١٨ أيار/مايو) قبل أن تدخل طلائع الجيش العربي القدس، وهي الأيام - يقول العارف - "التي أسمينها نحن أبناء بيت المقدس بالأيام الحمراء.... وراح الناس يسبون فيها غلوب" وغيره.^{١١٢}

وبعد انسحاب الجيش البريطاني من القدس في ١٤ أيار/مايو أخلت الهاغاناه مستعمرة عطروت شمالي القدس التي ورد ذكرها أعلاه، وغداة اليوم الذي غادرها سكانها اليهود زارها

مناضلاً، فإذا احتلها اليهود سقطت القدس.... فتردد القواقجي.... لأن المنطقة.... لا تدخل في دائرة اختصاصه.... ولكنه عاد فقبل"، وأرسل ثلاثة فصائل من جيشه سيطرت على القطاع الشمالي من القدس، وراحت تقصف الأحياء اليهودية الغربية بمدافعها.^{١١٧}

ويحدثم القتال في الأسبوع الأخير من نيسان/أبريل مع قوات البالماخ للسيطرة على باب الواد غربي القدس، حيث تبدأ الطريق القادمة من يافا بصعود جبال القدس. ويشترك إلى جانب مجاهدي الجهاد المقدس فوج اليرموك الثالث التابع لجيش الإنقاذ بقيادة المقدم عبد الحميد الراوي. ويتلقى الراوي أمراً من طه الهاشمي من مقر اللجنة العسكرية في دمشق بترك باب الواد والتوجه إلى القدس، فيذعن ويترك وراءه ثغرة في صفوف المناضلين تستطيع البالماخ اختراقها. وينتبه العارف إلى ذلك ويقول: "فرحت أستنجد الجيش العربي ليسد الثغرة التي حدثت بباب الواد.... وتحديث إلى قائد اللواء الرابع أحمد صدقي الجندي. إلا إن هذا لم يستطع تلبية النداء."^{١١٨}

وتشن الهاغاناه في الأسبوع الأول من أيار/مايو هجوماً كبيراً لاحتلال الأحياء السكنية العربية غربي المدينة القديمة وهي: القطمون، والطالبية، والبقة الفوقا. ويقود القائد القروي الفذ إبراهيم أبو دية المناضلين في الدفاع عنها. ولم يكتف الجيش البريطاني، الذي كان لا يزال مرابطاً في القدس، بصد النجديات العربية عن الوصول إلى هذه الأحياء، بينما ترك الطريق مفتوحة أمام اليهود من نواحيهم، بل نزع أيضاً سلاح أبو دية نفسه واعتقله إلى حين. ويستاء صاحبنا من هذا غاية الاستياء، ويجتمع بالقائد البريطاني المسؤول الكولونيل نيلسون و"أبديت استغرابي، واستغراب قومي العرب لذلك الموقف الذي وقفه الجيش.... وبعد أن استشار هذا أمره.... أرسل إلي رسولا يقول إنهم لا يمانعون في إرسال النجديات إلى القدس، شريطة أن لا يرتدي المجندون ثياب الجند، وأن يخفوا أسلحتهم عند مرورهم بالمخافر الحكومية."^{١١٩}

المؤذن بالأذان "ولم يكن وقت الصلاة قد حان، كما أمر الجنود بالتهليل والتكبير بأصوات عالية.... وكان لعمله هذا أثره المطلوب."^{١١٦} وفي ٢٨ أيار/ مايو زار الملك عبد الله القدس القديمة والحرم الشريف وكنيسة القيامة، ثم ذهب إلى باب الواد، وعاد إلى رام الله حيث قابله العارف. ويحدثنا الأخير عن هذا اللقاء فيقول: "إليك ما قاله لي [أي الملك] يومئذ بالحرف الواحد: قتلاهم كثيرون خسائرننا قليلة، والحمد لله. ولكن الملك كان بالرغم من ذلك عابساً. وفيما كنت أسأل نفسي عن السبب قال الملك: 'غريب طبع هؤلاء الإنكليز.... يقولون إننا إذا لم نستمع لنصائح مجلس الأمن ولم نتوقف عن إطلاق النار، سيضطرون لسحب الضباط الإنكليز الذين يشغلون معنا، وسيمتنعون عن تقديم الأسلحة والذخائر لجيشنا.... سكت جلالته برهة، ثم استأنف حديثه، وقال: 'فليسحبوا ضباطهم.. عندنا اثنان وعشرون ضابطاً بريطانياً.. فليأخذوهم أنا لا يهمني هذا.... وعندني العدد الكافي من الضباط العرب الأكفاء. وأما الأسلحة والذخائر فإنها تنقصنا.. وأنا في حاجة لمساعدتهم....' ثم راح جلالته يتحدث عن الدول العربية قائلاً: 'إنها قصرت في هذا المضمار.... وكان باستطاعتها - لو شاءت - أن تفعل الشيء الكثير فتتمد فلسطين بالأسلحة والمال والذخائر والرجال.'^{١١٧}

وكان مجلس الأمن قد أصدر قراراً في ٢٢ أيار/ مايو ١٩٤٨، بطلب وإلحاح من أميركا وتأييد من الاتحاد السوفياتي وتحفظ من بريطانيا، بوقف إطلاق النار تحت طائلة العقوبات. وكرر هذا الطلب في ٢٩ منه، وكلف الكونت فولك برنادوت السويدي الذي كان قد عُين وسيطاً دولياً بتثبيت مواعده. وأعلن برنادوت بدء الهدنة مدة شهر تبدأ في ١١ حزيران/ يونيو.^{١١٨} ويصف صاحبنا حالة القدس قبيل بدء الهدنة فيقول: "استعمل اليهود في الأيام الثلاثة التي سبقت الهدنة كل ما يملكون من سلاح وعتاد وقاموا بمحاولة المستميت للحصول على أكبر قدر مستطاع من الربح قبل أن تفرض الهدنة.... فقصفوا.... الأحياء العربية بنيران

العارف بصحبة الزعيم أحمد صدقي الجندي قائد اللواء الرابع في الجيش العربي، وشاهد "القرويين [العرب] يعملون فيها يد النهب، حتى المنازل فقد دمروها. والبقر والخيل والدواجن نهبوا. وما لم يستطيعوا حملها، بقروها. وكان بالإمكان حفظه، والإفادة منه، ولا سيما في سبيل إطعام اللاجئين وإسكانهم. هذا لو كان عندهم شيء من العقل والتنظيم."^{١١٣}

وبعد دخول الجيش العربي القدس، يزور صاحبنا الأقسام المحررة من المدينة ويطل عليها من الأسوار "فما كنت ترى.... سوى الأتربة والحجارة وأنقاض العمارات المتهمة."^{١١٤} ويستمر في هذه الأثناء القتال العنيف للسيطرة على باب الواد. ويقاوم إلى جانب المجاهدين الفلسطينيين فصائل من جيش الإنقاذ بقيادة المقدم محمد مهدي صالح العاني، وكان مع هذا مدفعان كبيران من عيار ست بوصات. ويزور العارف في أواسط أيار/ مايو موقع المدفعية المشرف على باب الواد ويجتمع بالمقدم العاني فيخبرنا ما يلي: "ورأيت بعيني كيف كان هؤلاء يضربون اليهود المنتشرين في التلال المطلة على باب الواد من الشرق.... وكان اليهود يتراجعون زرافات ووحداناً.... وكانت معنويات المجاهدين من جنود وضباط مرتفعة للغاية. وقد رجاني المقدم مهدي بك أن أزوّدهم فزودتهم بما هم في حاجة إليه من مؤن وقطن وأدوية وصفائح لنقل الماء."^{١١٥}

ولم تلبث وحدات من الجيش العربي أن حلت في قطاع باب الواد محل جيش الإنقاذ والمناضلين الفلسطينيين، أبرزها الكتيبة الثانية والكتيبة الرابعة. وتتصدى هاتان الكتيبتان لهجمات متكررة عنيدة ويأسسة قامت بها القوات اليهودية لزحزحتها عن موقع اللطرون الاستراتيجي المشرف مباشرة على باب الواد. ويزور العارف الموقع ويريه حابس المجالي، قائد الكتيبة الرابعة، ساعة في يده كانت في يد القائد اليهودي الذي قتل وهو يقود هجوماً على اللطرون. ويروي المجالي له كيف أنه خلال هجوم يهودي عنيف أمر هو

الأوراق من أجل وضع الفواكه والخضار التي يبيعونها لزبائنهم.^{١٢٦} ويستطرد نادباً: "قصارى القول كانت القدس يومئذ في حالة يرثى لها من الخراب والدمار، فكنت ترى، أينما حللت وحيثما سرت في أحيائها وشوارعها، الدور متهدمة، والحيطان متداعية، والأتربة والحجارة متراكمة، والجثث تحت الأنقاض.... والسوق الوحيدة التي كانت مفتوحة هي الممتدة من باب العمود.... [إلى] سوق العطارين.... فقد كانت هذه مليئة بالخضار والفواكه والخبز والبيض والألبان، ولم يذق العرب سكان المدينة القديمة ألم الحرمان لا من الزاد ولا من الماء، إلا إنهم حرموا من شيء أعز.... وكنت تسمعهم في كل صقع يتساءلون: أين الزعيم؟"^{١٢٧} كانت مدة الهدنة الأولى الموقته التي اتفق عليها شهراً واحداً يبدأ في ١١ حزيران/يونيو وينتهي في ٨ تموز/يوليو. وحاول الوسيط برنادوت خلال هذه الفترة ابتكار حل يقبله الطرفان (العرب وإسرائيل) مبني على مشروع التقسيم الذي كانت الأمم المتحدة قد أقرته في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، لكنه ينطوي على تعديلات أدخلها عليه (المشروع) ورفضها الطرفان. فاقترح تمديد الهدنة، ورفض العرب التمديد وقبل اليهود به ظاهرياً ونيتهم خرق أي هدنة جديدة.^{١٢٨} فاندلع القتال ثانية ودخلت النكبة مرحلتها الرابعة التي امتدت من ٨ تموز/يوليو إلى ١٨ تموز/يوليو.^{١٢٩} وكان أقسى فواجع العرب في هذه المرحلة سقوط مدينتي اللد والرملة (١١ - ١٤ تموز/يوليو) ومدينة الناصرة (١٦ تموز/يوليو) في يد اليهود، وطرد سكان المدينتين الأوليين منهما.

كانت اللد والرملة تقعان في السهل على جانبي الطريق المؤدية من يافا إلى القدس. وكان مجموع سكانهما نحو ٧٠,٠٠٠ نسمة، بمن في ذلك من لجأ إليهما من سكان القرى المجاورة التي كان اليهود قد احتلوا. وصمدت هاتان المدينتان إلى حينه بفضل صمود المناضلين من أهاليهما على الرغم من وقوعهما خارج الخطوط الدفاعية الأردنية التي انتشرت على التلال عند باب الواد واللطرون

مدافعهم.... ونسفوا جميع المباني القائمة بين الباب الجديد ومدرسة ترسانطة بين النوتردام والسور.^{١٣٠} وأصيب عدد كبير من الأديرة.... وظلت الأحياء اليهودية محصورة من كل جانب، لا يصلها الماء، ولا المؤن، ولا الرجال.... وكانت المدافع العربية تصيب الهدف بشكل يدعو للارتياح، وكنا نرى لهب الحرائق المشتعلة في الأحياء اليهودية.... وتقررت الهدنة. وكانت هذه أكبر مصيبة أمت بالعرب في تلك الفترة من الزمن.^{١٣١}

ويقول العارف في وصف الوضع في القدس خلال الهدنة الأولى، وهي المرحلة الثالثة من مراحل النكبة^{١٣٢} التي ذكرناها، إن الوسيط الدولي الكونت برنادوت طلب من الحكومات العربية "أن تزود يهود القدس بالماء. ولما رفضت هذه طلبه احتج عليها احتجاجاً شديداً، قائلاً إن هذه مسألة إنسانية لا يجوز للعرب أن يتعننوا في صدها."^{١٣٣} وينقل عن الوسيط أن أول من تحدث (أي الوسيط) إليه في هذا الموضوع هو البريغادير لاش البريطاني، قائد الفرقة الأولى في الجيش العربي، فاقتنع هذا برأي الوسيط، ثم تحدث الكونت برنادوت إلى توفيق باشا أبي الهدى، رئيس الحكومة الأردنية، في الموضوع نفسه فوافقه هذا في رأيه.^{١٣٤} ويضيف صاحبنا: "وكنا نرى.... سيارات الجيش العربي تنقل الماء عبر حي الشيخ جراح العربي إلى المباني اليهودية القائمة على جبل الزيتون. وإن كنا لا نستطيع أن نجزم فيما إذا كان رجال الجيش (غلوب ولاش) فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، أو أنهم حصلوا على إذن المليك."^{١٣٥} ومن مشاهد القدس في أثناء الهدنة أن البدو الأردنيين غير النظاميين الذين التحقوا بالجيش العربي "راحوا يعملون في البيوت.... والأحياء العربية يد النهب والسلب.... وما كان بمقدور واحد من رؤسائهم ضبط الجيش النظامي أن يردعهم."^{١٣٥} ويضيف العارف قائلاً: "ولئن نسيت فلن أنسى أنني رأيت في أيدي الباعة وبعض الجهال أوراقاً مقتلعة من كتاب 'العقد الفريد' نهبه الناهبون من مكتبة أديب فلسطين الكبير المرحوم إسعاف النشاشيبي، راح الباعة يستعملون هذه

على بعد نحو ١٥ كيلومتراً إلى الشرق منهما. ويحدثنا العارف عن طرد سكان اللد والرملة فيقول: "أجبرهم اليهود على الرحيل ولم يستثنوا من أوامرهم شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً. ولم يسمح لليهود لأحد من الراحلين أن يحمل معه شيئاً من نقوده أو متاعه. وقد جردت النساء من حليهن، وعين اليهود لهذه الألوف من الخلائق طريقاً وعرّة للمرور منها.... إلى رام الله. وكان الحر يومئذ شديداً. فمات منهم في الطريق خلال الأيام الثلاثة الأولى ثلاثمئة وخمسة وثلاثون شخصاً، مات أكثرهم عطشاً."^{١٣٠}

ويستطرد قائلاً: "وكانت الطرق.... إلى رام الله والقدس وأريحا ونابلس تعجّ بالآلاف اللاجئيين.... فراحوا يهيمون على وجوههم في الفضاء.... ولقد خيل إليّ وأنا أنظر إليهم أنهم سكارى، وما هم بسكارى.... وكنت يومئذ مسؤولاً عن إدارة هذا القطاع [رام الله]، فدعوت الناس المقيمين فيه، ولا سيما في مدينتي رام الله والبييرة،^{١٣١} إلى مد يد العون لهؤلاء اللاجئيين.... ورحنا ننقل اللاجئيين بالعربات والسيارات وبما تيسر لنا من وسائل للنقل. وكلما وصل فريق، أنزلناه في مكان يقيه شر الحر والتعب. ولم يبق في هاتين المدينتين، وفيما حولهما من آكام، موضع لقدم إلا وأوى إليه اللاجئون؛ سواء من ذلك الدور.... أو المتاجر والحانات والمصانع والمقاهي والإسطبلات والمدارس والمعاهد والكنائس والمساجد، حتى والمغاور والكهوف."^{١٣٢}

ويتابع صاحبنا وصفه فيقول: "ولقد هاج سكان بيت المقدس عندما أتاهم الخبر اليقين.... وراحوا ينددون بالجيش العربي لاعتقادهم بأنه قصر في الدفاع عن اللد والرملة، وبالإنكليز الذين بيدهم مقاليد هذا الجيش...."^{١٣٣} فيقرر العارف في ١٤ تموز/يوليو أن يبعث برسالة إلى الملك عبد الله يقول فيها: "لقد ساءت الحال، يا مولاي، في هذه الديار بسبب الوضع الحربي الحالي. وازدادت اليوم سوءاً عندما تواردت الأنباء مؤكدة سقوط اللد والرملة.... فساد الذعر.... واشتد السخط فعمّ جميع طبقات الشعب.... وليس يجدي في هذه

الأونة الخطيرة إلا القيام بعمل حاسم يؤدي إلى نصر سريع.... وأرى من مصلحة البلاد ومصلحة جلالكم ومصلحة القضية بوجه عام أن تسحبوا بوجه السرعة القائد^{١٣٤} الذي يقود القطعات المحاربة.... وحبذا لو عهدتم جلالكم بهذه المهمة لرجل من أبناء أمتنا المخلصين...."^{١٣٥}

ويخاطب الملك صاحبنا عاتباً عن طريق الهاتف في اليوم التالي، ١٥ تموز/يوليو، فيقول: "أسفتُ لما حدث. وأسفتُ أيضاً للذعر.... كان المنتظر أن يقف الناس، وأن يثبتوا.... والجيش الأردني الذي.... يحافظ ما أمكن على المقدسات يجب أن يُشكر.... فالثبات والإيمان رأس كل شيء."^{١٣٦}

وما لبث الوسيط الدولي الكونت فولك برنادوت أن زار رام الله في ٣ آب/أغسطس ليتفقد اللاجئيين ويرى بعينه ما حلّ بهم. ويستقبله العارف في مطار قلندية القريب، بطلب من الملك عبد الله، ويرافقه إلى حيث يقيم اللاجئون. ويحدثنا صاحبنا فيقول: "كان الوسيط يومئذ مقتنعاً أن هؤلاء اللاجئيين قد أخطأوا، إذ غادروا منازلهم بمحض اختيارهم، رغم أن اليهود طلبوا إليهم البقاء حيث كانوا. هذا ما قاله لي الوسيط يومئذ. وهو بالطبع ما قاله له اليهود. فأكدت له أن اليهود كاذبون، وأن ما قاله له ليس إلا فكاً وبهتاناً، وأن هؤلاء اللاجئيين لم يغادروا منازلهم برضاهم، وإنما هم أكرهوا على مغادرتها. وقد زودته ببيان مشفوع باليمين وقّع عليه مئة من كبار اللاجئيين، في طليعتهم رئيسا بلديتي اللد والرملة، وأعضاء المجالس واللجان المحلية، ورؤساء الطوائف المسيحية على اختلاف مذاهبهم من روم وبروتستانت ولاتين، وعدد كبير من المخاتير وعيون البلاد التي احتلها اليهود."^{١٣٧}

لعل هذه الرواية عن لقاء صاحبنا الوسيط الدولي أهم ما رواه العارف عما حدث له خلال عام النكبة، ذلك بأنها تشير إلى تاريخ مولد الفرية الصهيونية الكبرى التي ما زالت في صميم رواية إسرائيل إلى يومنا هذا عن أحداث سنة ١٩٤٨، ومنشأ قضية اللاجئيين الفلسطينيين فيها، كما

على بعد نحو ١٥ كيلومتراً إلى الشرق منهما. ويحدثنا العارف عن طرد سكان اللد والرملة فيقول: "أجبرهم اليهود على الرحيل ولم يستثنوا من أوامرهم شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً. ولم يسمح لليهود لأحد من الراحلين أن يحمل معه شيئاً من نقوده أو متاعه. وقد جردت النساء من حليهن، وعين اليهود لهذه الألوف من الخلائق طريقاً وعرّة للمرور منها.... إلى رام الله. وكان الحر يومئذ شديداً. فمات منهم في الطريق خلال الأيام الثلاثة الأولى ثلاثمئة وخمسة وثلاثون شخصاً، مات أكثرهم عطشاً."^{١٣٠}

ويستطرد قائلاً: "وكانت الطرق.... إلى رام الله والقدس وأريحا ونابلس تعجّ بالآلاف اللاجئيين.... فراحوا يهيمون على وجوههم في الفضاء.... ولقد خيل إليّ وأنا أنظر إليهم أنهم سكارى، وما هم بسكارى.... وكنت يومئذ مسؤولاً عن إدارة هذا القطاع [رام الله]، فدعوت الناس المقيمين فيه، ولا سيما في مدينتي رام الله والبييرة،^{١٣١} إلى مد يد العون لهؤلاء اللاجئيين.... ورحنا ننقل اللاجئيين بالعربات والسيارات وبما تيسر لنا من وسائل للنقل. وكلما وصل فريق، أنزلناه في مكان يقيه شر الحر والتعب. ولم يبق في هاتين المدينتين، وفيما حولهما من آكام، موضع لقدم إلا وأوى إليه اللاجئون؛ سواء من ذلك الدور.... أو المتاجر والحانات والمصانع والمقاهي والإسطبلات والمدارس والمعاهد والكنائس والمساجد، حتى والمغاور والكهوف."^{١٣٢}

ويتابع صاحبنا وصفه فيقول: "ولقد هاج سكان بيت المقدس عندما أتاهم الخبر اليقين.... وراحوا ينددون بالجيش العربي لاعتقادهم بأنه قصر في الدفاع عن اللد والرملة، وبالإنكليز الذين بيدهم مقاليد هذا الجيش...."^{١٣٣} فيقرر العارف في ١٤ تموز/يوليو أن يبعث برسالة إلى الملك عبد الله يقول فيها: "لقد ساءت الحال، يا مولاي، في هذه الديار بسبب الوضع الحربي الحالي. وازدادت اليوم سوءاً عندما تواردت الأنباء مؤكدة سقوط اللد والرملة.... فساد الذعر.... واشتد السخط فعمّ جميع طبقات الشعب.... وليس يجدي في هذه

درج الغوانمة سمعت المؤذن ينادي الناس من على المذنة إلى الصلاة... فسرت لأن صوت المؤذن ما برح يدوي في بيت المقدس، وحزنت لأنني لم أر في ساحة المسجد سوى بضعة رجال من المصلين الطاعنين في السن.^{١٤٢} وعند بدء الهدنة الثانية في ١٨ تموز/ يوليو تبدأ المرحلة الخامسة من مراحل قتال النكبة.^{١٤٣}

رُفِع الستار خلال هذه المرحلة عن مظاهر التماسك الزائف بين العواصم العربية، وازداد العدو صلفاً وجبروتاً بتحقيقه السيطرة الجوية التامة ونمو ترسانته من الأسلحة الثقيلة. وبدأت في ١٩ تموز/ يوليو اتصالات سرية بين عمان وتل أبيب بمبادرة أردنية إلى استكشاف التوصل إلى صلح منفرد بينهما.^{١٤٤} وعلى الرغم من هذه المحادثات فإن القوات الإسرائيلية أخذت تقوم خلال الفترة ١٢ - ١٧ آب/ أغسطس بهجمات عنيفة متكررة في القدس للاستيلاء على الأحياء العربية الشمالية على الطريق الرئيسي بين القدس ورام الله. ويحدثنا العارف عن ذلك فيقول: "وجاءني في ساعة مبكرة من صباح ذلك اليوم [١٧ آب/ أغسطس] مسيو كروازيه، مندوب الصليب الأحمر، قائلاً أنه لا يشك قط في أن القدس باتت في خطر... ومتى سقطت القدس، تبتعتها رام الله، وأنه يرى من المصلحة حصر النساء والأطفال في ساحة مدرسة الفرندز [الأميركية في رام الله]... وهذه في أمان إذ يرفرف عليها علم الصليب الأحمر. وأضاف... أنه ينصح بخزن مقادير كبيرة من الدقيق والتمر والسكر والأرز في عنابر المدرسة... وفي الوقت الذي رجوته فيه ألا يذكر شيئاً من هذا للناس رأيت من المصلحة أن آخذ برأيه... ورحنا إلى القرى القريبة من القدس ورام الله نحث أبنائها المناضلين على امتشاق السلاح استعداداً للطوارئ فلبوا النداء... وانضموا إلى حماة المدينة [القدس]...^{١٤٥}

ويُعقد في أول تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨ في غزة مؤتمر فلسطيني وطني برئاسة الحاج أمين الحسيني القادم من القاهرة، وبرعاية كل من سورية ولبنان والسعودية ومصر. ويقرر المؤتمر

تلقي ضوءاً على خلفية قرار الجمعية العامة بحق العودة،^{١٤٦} الذي استند إلى توصية الوسيط الدولي نفسه قبل اغتياله في القسم اليهودي من القدس بعد أسابيع قليلة من لقائه العارف.

وفي ١٥ تموز/ يوليو يصدر مجلس الأمن قراراً تبني فيه اقتراحاً أميركياً بوجوب فرض هدنة خلال ٢٤ ساعة تظل قائمة إلى أن توضع تسوية سلمية بجهود الوسيط الدولي. وكما حدث قبيل بدء الهدنة الأولى الموقته، يستعر القصف المدفعي في القدس بين الطرفين، ويصف صاحبنا الحال فيقول: "في ١٦ تموز [يوليو] ١٩٤٨ كانت القدس كلها من أولها إلى آخرها في جحيم مستعر... وكان العرب يقصفون الأحياء اليهودية في المدينة الجديدة بمدافعهم ويقومون بالعملية المدفعية المعروفة بـ 'الكنس' (التنظيف)... واستعمل اليهود... من الأسلحة... ما لا عهد للقدس بمثلها من قبل. وكانت قنابل هذه المدافع وتلك تتساقط في قلب المدينة وأطرافها على غير هدى، هنا وهناك. فالفريقان كانا يعلمان العلم اليقين... أن الهدنة ستعلن... فليفرغا ما في جعبهما من قنابل ليربحا أكثر ربح مستطاع."^{١٤٧} وينقل صاحبنا عن "يوميات" الأباء البيض في كنيسة الصلاحية داخل المدينة القديمة المسورة أن القذائف أصابت مسجد الصخرة والمسجد الأقصى وقبة المعراج، ومواضع أخرى من الحرم الشريف، كما أصابت كنيسة القيامة والمرحلة الرابعة من مراحل درب الآلام وبعض الأديرة، وقتلت بعض الرهبان، وأصابت مستشفى الهوسبيس، وقتلت وجرحت عدداً كبيراً من المرضى والجرحى الذين كانوا فيه، كما أحرقت سيارات الإسعاف.^{١٤٨} وقام اليهود عشية حلول الهدنة في ١٨ تموز/ يوليو بهجوم شديد استهدف ثلاثة من أبواب المدينة القديمة أملاً باقتحام أحدها، لكنهم صُدوا وعجزوا عن اختراق الأسوار بفضل مقاومة جنود الجيش العربي والمناضلين من قوات الجهاد المقدس.^{١٤٩} ويخبرنا العارف أنه زار القدس صبيحة اليوم التالي لوقف القتال قائلاً: "وغشيت ساحة الحرم لأرى بعيني مطارح القنابل التي أصابته، وفيما كنت أجتاز بابه الشمالي عند

العربي في ميدان مصطفى كامل بالقاهرة.^{١٥١} وفي ٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٨ أخذ دافيد بن - غوريون، رئيس الحكومة الإسرائيلية، قراراً اعتبره "أخطر قرار منذ أن قررنا إعلان إقامة الدولة"،^{١٥٢} فحواه عملياً وجوب هزيمة الجيش المصري هزيمة حاسمة وطرده من فلسطين، على الرغم من الهدنة القائمة، بحجة عدم تقيد مصر بشروط الهدنة. واعتمد بن - غوريون، طبعاً، في قراره هذا، على الفرقة السائدة بين العواصم العربية، وسكون سائر الجبهات (الأردنية والعراقية والسورية)، واستعداد عمّان للتفاوض معه. لذا نفذ قراره بعمليتين عسكريتين ضخمتين، عُرِفَت الأولى باسم عملية يوآف، واستمرت من ١٥ تشرين الأول/أكتوبر إلى ٢٢ منه، وتبعتها الثانية باسم عملية حوريف التي استمرت من ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٨ لغاية ٨ كانون الثاني/يناير ١٩٤٩. وكانت حصيلة العمليتين ما يلي: اختراق الخطوط المصرية، وفك عزلة المستعمرات اليهودية الواقعة في النقب إلى الجنوب منها، وحصر الجيش المصري ضمن حدود ضيقة تحيط بمدينة غزة (هي حدود قطاع غزة الحالي)، وعزل القوات المصرية غير النظامية في قطاع القدس عن الجيش النظامي المصري في جنوب البلاد. هذا إلى اختراق الحدود المصرية نفسها والتوغل في سيناء لعزل الجيش المصري في قطاع غزة عن سيناء ذاتها، والإيحاء بالتوجه نحو قناة السويس وتهديدها غرباً. وبالإضافة إلى صمود الجيش المصري داخل قطاع غزة الصغير، وبطولة قوة مصرية منعزلة ومحاصرة في بلدة الفالوجة العربية الواقعة إلى الشمال الشرقي من غزة، فقد كان العامل الحاسم في وقف الهجوم الإسرائيلي الكاسح على مصر إنذاران: أولهما من بريطانيا بتفعيل المعاهدة البريطانية - المصرية العائدة إلى سنة ١٩٣٦، وثانيهما من الرئيس الأميركي هاري ترومان نفسه إلى بن - غوريون بـ "الانسحاب الفوري" من الأراضي المصرية "كحد أدنى.... [وإلا] إعادة نظر هذه الحكومة في علاقتها بإسرائيل".^{١٥٣} في إثر هذه التطورات أعلنت مصر في ٤ كانون

إعلان استقلال فلسطين في حدودها الانتدابية، وتأليف "حكومة عموم فلسطين" برئاسة أحمد حلمي عبد الباقي، الشخصية الوطنية الفلسطينية البارزة وعضو الهيئة العربية العليا، وهي أعلى سلطة فلسطينية قائمة. ويعترف كل من سورية ولبنان والسعودية بالحكومة الجديدة، ويعارض الملك عبد الله قيامها معارضة شديدة. ويحاول بطل الريف عبد الكريم الخطابي المقيم في منفاه بالقاهرة التوسط مع عبد الله فيرجو "من ابن بنت الرسول.... أن تقرّوا توحيد الكلمة.... وإنقاذ الموقف بحكمتمكم وبُعد نظرکم.... والحاضر يرى ما لا يراه الغائب".^{١٤٦} لكن الملك عبد الله لا يرد على الخطابي، وإنما يرسل رسالة إلى رئيس الحكومة المصرية، محمود فهمي النقراشي باشا، يطلع صاحبنا على نصها غداة اليوم الذي أرسلها فيه.^{١٤٧} ويقول عبد الله في رسالته فيما يقوله: "إننا نخشى على سلامة بلادنا ومركزها من أي دولة ضعيفة قد تتكون في فلسطين، تنتسب إلى العرب.... إنني سأحارب هؤلاء حيثما كانوا [يعني الحاج أمين الحسيني وحكومة عموم فلسطين] كما أحارب اليهود أنفسهم".^{١٤٨} ويخبرنا العارف أن عرب فلسطين استقبلوا في معظمهم "هذا النبأ [تأليف حكومة عموم فلسطين] بشيء كثير من الأمل والرجاء.... واختفت روح الانهزام، تلك الروح التي بدت في الأوساط القومية إثر سقوط اللد والرملة. وراح الشبان يتنادون إلى جمع الصفوف.... ولكن سرعان ما انقلب رجاؤهم إلى يأس، عندما علموا أن الحكومة الأردنية الهاشمية لم تعترف بها".^{١٤٩} ولم تؤول حكومة عموم فلسطين إلى شيء يذكر بسبب ضم الملك عبد الله الأراضي الفلسطينية التي كانت تحت سيطرة الجيش العربي إلى مملكته كما سيرد أدناه،^{١٥٠} وبسبب سائر التطورات في هذه المرحلة والمرحلة السادسة التي تلتها. وتمر الأعوام ويصف صاحبنا ما تبقى من هذه الحكومة عند زيارته مقرها في القاهرة بقوله: "ورأيت بعيني موظفي هذه الحكومة (وإن شئت فقل بقاياها) يعملون في غرفة متواضعة كانت فيما مضى مطبخاً لنادي الاتحاد

أن مناضلي هذه القرى صمدوا وربطوا وقاموا فيها طوال الفترة منذ بدء القتال لغاية قدوم الجيش العراقي إلى فلسطين، وأنهم قاتلوا وحاربوا واستشهدوا وحافظوا على قراهم وأراضيهم إلى جانب هذا الجيش طول فترة انتشاره في البلد. ويقول صاحبنا في هذا الصدد: "مما يحز في النفس الحسرة والألم أننا، بالإضافة إلى ما أضعناه من وطننا العزيز في ميادين القتال، خسرننا مساحات شاسعة من أراضينا دون حرب أو قتال. وما كنا لنخسرنا لولا الحماسة والجهل، ولو كان لدي البرهان الوافي لقلت أيضاً الخيانة وفساد الضمير."^{١٦٠} ويقدر العارف مساحة الأراضي التي فقدناها (فيما سمي "كارثة المثلث") بنصف مليون من الدونمات بسبب طريقة انسحاب الجيش العراقي من أراضي طولكرم وجنين ونابلس وهي من أغلى وأحسن الأراضي بفلسطين.^{١٦١} أما القرى التي فقدناها من قطاع طولكرم في هذه "الصفقة" فهي: باقة الغربية؛ جت؛ جلجولية؛ خربة خريش؛ فرديسيا؛ قلنسوة؛ كفر قاسم؛ بير السكة؛ ميسر؛ النزلتان [الشرقية والغربية].^{١٦٢}

وينقل العارف عن سليمان بك طوقان رئيس بلدية نابلس أن هذا الأخير وزملاءه هاشم الجبوسي وحلمي العبوشي وعبد الرحيم السبع ووفيق الحمد الله رؤساء بلديات طولكرم وجنين وقليلية وعنتبا، بالتتابع، زاروا الملك عبد الله في ٢٩ آذار/مارس ١٩٤٩، وأنه قطع لهم وعداً "بالأ" يمضي أي اتفاق لا يرضى به أهل البلاد.... وأنه سيستشيرهم في الموضوع قبل إقراره.^{١٦٣} كما ينقل العارف عن طوقان أنه (أي طوقان) وزملاءه رؤساء البلديات المذكورين طلبوا أن يؤذن لهم في زيارة العراق للتوسل إلى ولاة الأمر "أن يترثوا وألا يسحبوا جيشهم من فلسطين"، لكن طلبهم هذا رفضه رئيس الحكومة نوري السعيد حينذاك، ووزير الدفاع العراقي شاكر الوادي.^{١٦٤}

لم يقتصر جشع إسرائيل وتلغفها لالتهام الأراضي الفلسطينية على الجبهة العراقية الوسطى، بل تعدها إلى سائر الجبهات، حيث كانت قواتها تتقدم مهولة لضم أكبر مساحات من الأراضي

الثاني/يناير ١٩٤٩ استعدادها للتفاوض بشأن عقد هدنة دائمة مع إسرائيل. ويحدثنا صاحبنا عن ردات الفعل على خبر بدء هذه المفاوضات: "إن أكثر الناس كانوا يعتقدون أنه باستطاعة الجيش المصري وحده.... أن يقهر اليهود.... وإلا فما فائدة مصر بنفوسها.... وبنيلها وأطيانها وباشاواتها وصحفها ومرافقها وصناعاتها.... وإنتاجها الزراعي.... وأزهرها وجامعاتها وتراثها التاريخي الزاخر بالمفاخر."^{١٦٥} ويضيف: "وأخذ الناس على مصر أنها.... رضيت بمفاوضة اليهود في رودس^{١٦٥} على انفراد.... ولقد زاد في الهم أن كانت هذه هي المرة الأولى التي يجلس فيها العرب واليهود على سرر متقابلين."^{١٦٦}

وفي ١٤ شباط/فبراير ١٩٤٩ يُعقد أول برلمان يهودي في القدس "بعد بعث إسرائيل منذ ثلاثة آلاف سنة."^{١٦٧} ويخبرنا صاحبنا أن اليهود رفعوا "في أحيائهم وعلى بناياتهم الأعلام اليهودية. ورفعت على بعض البنايات أعلام الدول التي اعترفت بإسرائيل، وعددها كان يومئذ اثنتين وأربعين.... وراح اليهود طيلة ذلك اليوم والذي بعده يغنون ويرقصون وينشدون الأهازيج الوطنية."^{١٦٨}

وفي ٢٤ شباط/فبراير ١٩٤٩، وقّع في جزيرة رودس اتفاقية الهدنة الدائمة بين مصر وإسرائيل. وتبدأ بهذا التوقيع المرحلة السادسة والأخيرة من مراحل النكبة التي عدناها، والتي تشهد توالي اتفاقيات الهدنة الدائمة بين إسرائيل وكل من الأردن ولبنان وسورية، بالتتابع.^{١٦٩} أما الجيش العراقي فقد قرر بالتواطؤ مع الملك عبد الله الانسحاب من مواقعه في وسط فلسطين من دون توقيع اتفاقية هدنة مع إسرائيل (هرباً من غضب الرأي العام في العراق)، بحيث تحل قوات شرق الأردن (الجيش العربي) محل الجيش العراقي بعد انسحابه. غير أن هذا التدبير جاء بثمن باهظ ألقي على الشعب الفلسطيني، ذلك بأن إسرائيل إنما "قبلت" به شرط تسليمها مساحات شاسعة من الأراضي الفلسطينية مع قراها التي كانت داخل الخنادق العراقية وفي حمايتها، وهذا ما جرى. والأمر الذي جعل هذه الفاجعة أكثر إيلاًماً

فجوات وهفوات ونقائص والكم الضخم الذي كُتب في هذا الشأن منذئذ.

ويتساءل صاحبنا في مقدمته عن تسميته كتابه "النكبة" فيقول: "وكيف لا أسميه النكبة؟ وقد نكبتنا، نحن معاشر العرب عامة والفلسطينيين خاصة، خلال هذه الحقبة من الزمن، بما لم نكبت بمثله منذ قرون وأحقاب: فسلبنا وطننا، وطردنا من ديارنا، وفقدنا عدداً كبيراً من أبنائنا وأفلاذ أكبادنا، وأصبنا فوق هذا وذاك بكرامتنا في الصميم. وقد يذكر التاريخ غداً أن حفنة ما كان يؤبه لها من شذاز الآفاق تغلبت على أربعين مليوناً من العرب.... ويستطرد "ومن يدري؟ لعل ذلك التاريخ لا يعدل في حكمه... ولعل الهوى يجد سبيله إلى معاقل التاريخ أيضاً، كما وجده إلى أروقة الساسة وهيئات الأمم المتحدة في العصر العشرين، فيمر بالحقائق التي وقعت في هذا الجزء من العالم مر الكرام، والهوى يعمي ويصم."

ويرى العارف أن التاريخ "الذي يكتب فور وقوع الحادث" عرضة لعثرات الكاتب، ذلك بأنه [أي الكاتب] "مهما أوتي من عدل وحكمة وصدق ونزاهة، لا بد أن يكون عند حدوث الحادث متأثراً بمصالحه الذاتية أو الحزبية أو القومية أو الدينية"، لذلك فإن "أحسن التواريخ وأصدقها ما يكتبه المؤرخون بعد مضي ما لا يقل عن ربع قرن من الزمن"، لأنه "كلما طال الحين كان الحكم أبعد من الغمز والطعن"، كما أن كثيراً من الحقائق "التي يميل الناس بحكم غريزتهم إلى إنكارها حين وقوعها، تكون قد تكشفت ووضح أمرها."

من هذا المنطلق يؤكد صاحبنا أنه إن هو إلا "راوية يريد أن يروي للناس ما حدث. وقد آليت على نفسي ألا أروي إلا ما رأيت بأب عيني، وما رواه لي العدل الثقات." وهكذا "عندما يأتي اليوم الذي يصح فيه التاريخ" يكون "لدى المؤرخين التابعين، سطور يستطيعون الركون إليها... سطور تدعمها الوقائع والأسماء والأماكن والأرقام." ويضيف العارف في وصف نهج عمله قائلاً: "وإنه لمن دواعي التفوق أن أكون، منذ عهد الصبا والدراسة في الأستانة، قد درجت على تدوين

الفلسطينية من دون قتال وفي أقصر وقت، بينما كانت وفودها تفاوض كل دولة عربية على حدة لعقد اتفاقية هدنة دائمة مع كل منها على انفراد. ويغبر صاحبنا لسماعه ما جرى لقرية صور باهر الاستراتيجية والواقعة على أكمة جنوبي القدس عند تحديد حدود الهدنة على الأرض في جوارها. وكان مناخلو القرية قد صمدوا طوال فترات القتال من بدئها إلى آخرها، وأبلوا أحسن بلاء في المحافظة على جميع أملاك القرية وكرومها بقيادة أحد أبنائها المناضل محمد محمود جاد الله وبمعونة متطوعين من الإخوان المسلمين المصريين. ويזור العارف صور باهر في ٥ أيار/ مايو ١٩٤٩، فيروي له أهل القرية أن القائد الإسرائيلي موشيه دايان جاءهم وبرفقتهم ٢٠٠ جندي تحرسهم ثلاث مصفحات. واستدعى شيوخ القرية، فجاءوا يتقدمهم جاد الله. فطلب منهم الانسحاب من الخنادق التي كانوا يرابطون فيها. ولما رفضوا أنذرهم بأنه سيحتل المنطقة بالقوة، وكاد الفريقان يصطدمان لولا أن وصل القائد الأردني أحمد صدقي الجندي ومعه ضابطان أردنيان وبعض الجنود، فتفاهل القوم خيراً إلى أن سمعوا أحد الضابطين المرافقين لأحمد صدقي يقول: "لا بد من الرجوع إلى الخلف. هذا ما أشارت إليه الخرائط.... إذا لم ترجعوا بالحسنى.... فإننا سنرجعكم بالقوة." ويضيف صاحبنا: "ولما رأى أهل القرية أن هذا التخطيط [تخطيط الحدود] يمنح اليهود زهاء خمسة آلاف دونم من أراضيهم دون قتال، راحوا يندبون حظهم، ويلعنون القادة والزعماء الذين أوصلوهم إلى هذا المصير. فحطم عدد من المناضلين بنادقهم.... وراحت النساء يولولن، وبعض الرجال يبكون كالنساء."^{١٦٥}

(ن) "نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود"

يظل كتاب العارف الذي بين أيديكم المرجع الأوثق والأفضل بالعربية لنكبتنا سنة ١٩٤٨ على الرغم من مر السنين، وعلى الرغم مما يشوبه من

آن واحد، ثم مع قادة "الجيش العربي" البريطانيين والعرب، فضلاً عن علاقته بالملك عبد الله^{١٦٦} نفسه. هذا إضافة إلى علاقات وثيقة أقامها، بصفته مساعداً لحاكم لواء القدس البريطاني، مع قناصل الدول الأجنبية، ومسؤولي الصليب الأحمر، ورؤساء الطوائف المسيحية الشرقية والغربية، ورؤساء الأديرة والمؤسسات الرهبانية التي زحرت القدس بها.

إن "العدل الثقات" الذين استند إليهم لم ينحصروا في معارفه العديدين في القدس وأعمالها فحسب، بل تعدّوهم أيضاً ليشملوا من تعرّف إليهم وخبرهم سابقاً في طول البلد وعرضه، في أثناء توليه المهيد منصب قائمقام في أكثر من مدينة وقضاء على مدى عقدين وأكثر، منهم: رؤساء بلديات ومجالس محلية قروية وأعيان وتجار ومخاتير وقضاة ومحامون وأطباء ومعلمون ومناضلون وقرويون عاديون قصدهم أو قصده بعيد النكبة عند انكبابه على إنجاز كتابه خلال السنوات ١٩٤٩ - ١٩٥٥ التي تلت النكبة. والواقع أنه لم يتوان عن "توظيفهم" جميعاً لتزويده بما لديهم من زاد "الوقائع والأسماء والأماكن والأرقام"، فحفظ لنا عن هذا السبيل حقائق وروايات ما كان لنا أن نطلع عليها لولاه، فكان بذلك أول من قام من الباحثين الفلسطينيين والعرب بجمع ما يسمى اليوم "التاريخ الشفهي" عن النكبة على هذا النطاق الواسع.

وبينما تحتل القدس حيزاً وثيراً في هذا الكتاب بحيث تقسم عنوانه مع سائر البلد، فهي مسقط رأس صاحبنا ومحط هواه ولوائه وموقع سكنه وقاعدة عمله وتحركه، فإن هذا لم يأت على حساب ما جرى خارج القدس وجوارها، ذلك بأن يوميات المؤلف التي شكلت العمود الفقري للكتاب تخطت المكان حكماً ولا حقت الزمن، الأمر الذي أدى إلى متابعة الأحداث عند وقوعها أينما حدثت وفق تسلسلها الزمني. وهكذا فإن ما حصده المؤلف من "العدل الثقات" - الذين ذكرنا - عن أخبار سقوط صفد أو عكا أو يافا أو المجدل أو بئر السبع أو هذه القرية أو تلك، يُعتبر من أهم المراجع عن مصير

مذكراتي في يوميات متتابعة ما انقطعت عنها يوماً واحداً خلال الأعوام الأربعين المنصرمة. فلما صدرت توصية التقسيم عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، واندلع القتال في إثرها، راح يسجل في يومياته "ما يحدث من الأحداث، غير متملق أحداً من الناس: ملكاً كان أو زعيماً، حاكماً أو محكوماً، غنياً أو فقيراً، لا، ولا شايعة فئة من الناس، أو هاجمت أخرى عن قصد. ولقد اعتصمت بالنزاهة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. فذكرت ما حدث كما حدث. ودونت ما كان، كما كان؛ لا كما أردت أنا، أو أراد قومي العرب، أن يكون. ولم أبال إن كان في روايتي على هذا النحو ما يرضي هذا الفريق أو يؤلم ذلك."

يتضح مما سبق أن العارف ينفي عن نفسه صفة المؤرخ لا من باب التواضع المصطنع، لكن عن قناعة بين حيثياتها، بيد أنه يعتز بدوره كـ "راوية" يسجل السطور التي "تدعمها الوقائع والأسماء والأماكن" من حصاد ما رأى "بأم عينيه"، أو ما رواه له "العدل الثقات"، وهي سطور ما زالت بانتظار "المؤرخ التابع" الذي هياها له، عربياً كان أو أجنبياً.

والمفارقة أن "سطور" صاحبنا لم تزد أهمية لقريها من الحدث فحسب، بل لتزامن بعضها معه أيضاً كونها سجلت ما رآه عيناه، وكذلك لقرب "العدل الثقات" الذين اعتمدتهم من الحدث أيضاً، ولعل ما رواه صاحبنا عما جرى له خلال النكبة في القسم السابق خير شاهد على ذلك.

ويتبين أيضاً من القسم السابق كيف أن بقاء العارف في موقعه الإداري في رام الله طوال الأشهر الأخيرة من الانتداب البريطاني، وثباته في هذا الموقع بعد انتهائه، ودخول "الجيش العربي" البلد، وتثبيتته في منصبه هذا من جانب حكومة شرق الأردن، أمور كلها أتاحت له مراقبة الأحداث في أخطر جبهة من جبهات القتال: جبهة القدس. كما أتاحت له إقامة شبكة واسعة من العلاقات مع الطرف البريطاني (المدني والعسكري)، ومع قادة المناضلين الفلسطينيين في "الجهاد المقدس" في

قابلهم من القادة إلى حد أنهم أطلعوه على ملفاتهم وإضباراتهم الرسمية السرية، فاقتبس منها ما اقتبس واستنسخ ما استنسخ، وهي وثائق لا يعلم إلا الله ما حل بها منذئذ، ولن تجد لبعثها أثراً إلا في كتابنا هذا.

ومما يدعو إلى الإعجاب بمؤلفنا تقديره دور المواطنين والمناضلين العاديين من سكان المدن والريف، وحرصه الدؤوب على التعرف إلى ذوي الأسماء غير الرنانة وتسجيل بطولاتهم لنا. فهو، على سبيل المثال، يعطيك أسماء أعضاء "فرقة التدمير" الفلسطينية الشباب الذين أبلوا بلاء حسناً في معارك القدس، منهم: عبد القادر فرحات المعروف بأبي محمد السدمير؛ محمد علي الكردي؛ عادل شرف؛ يعقوب أبو حليلة (من القدس)؛ محمود دعيس (من الخليل)؛ حلمي البرق (من نابلس)؛ محمود العكاوي (من عكا)؛ عبد الرحمن السيلوي (من قرية سيلة الظهر).^{١٦٧} ويشيد بالشاب سامي الأصفر وشقيقه شفيق الأصفر من سكان يافا اللذين توليا صناعة الألغام للاستعمال في القتال ضد القوات اليهودية في تل أبيب.^{١٦٨} ويزكي دور راضية المهدي وابنها فؤاد في أثناء الهجوم اليهودي على الناصرة.^{١٦٩} ولا ينسى جواد شحير الذي قدم سيارته وألته اللاسلكية وأنفق ٤٠٠٠ جنيه من ماله الخاص دفاعاً عن بئر السبع....^{١٧٠} وكثيرين غيره.

ويتجلى هذا الحرص على الاعتراف بأدوار المواطنين العاديين وتضحياتهم، من فلسطينيين وعرب مدنيين وعسكريين، أكثر ما يتجلى في الجهود الجبارة التي بذلها صاحبنا في تثبيت أسماء من استشهد منهم، وذكر مواقع استشهادهم وتواريخه وبلد الشهيد، وما أمكن أن يعرف عنه. والعارف كما نعلم أول من قام بهذا الجهد الفذ، فجمع بين دفتي كتاب واحد أسماء هؤلاء الشهداء كافة، وجعله الجزء السادس من كتابه "النكبة" في طبعته الأولى، ويجده القارئ في الجزء الثالث من هذه الطبعة الجديدة. وقسم العارف الشهداء الذين استقصى أسماءهم قسمين: أولهما شهداء الجيوش العربية

هذه الأماكن لما يتضمنه من معلومات وحقائق غير متوفرة إلا في كتابه - هذا إضافة إلى مرجعية صاحبنا لما حدث في القدس ذاتها خلال النكبة. لم يكتف العارف بيوميته ومصادره المقدسية والفلسطينية، ولم يختزل الزمن لنشر كتابه، فلم يصدر الجزء الأول من أجزاءه الستة إلا في سنة ١٩٥٦، وكان الملك عبد الله قد عين صاحبنا رئيساً لبلدية القدس سنة ١٩٤٩، وانتخب لهذا المنصب سنة ١٩٥١، وظل فيه حتى سنة ١٩٥٥، فأمضى هذه السنوات في إضافة ما أمكن جمعه من وقائع وحقائق إلى يومياته، وفي مقابلة روايات الرواة العديدين بعضها مع بعض إقامة للتوازن بينها، وسعيًا وراء حقيقة ما جرى. ومن أبرز نشاطاته في هذا السبيل زيارته العواصم العربية: بيروت ودمشق وبغداد والقاهرة، فهو زار الثلاث الأول في أواخر سنة ١٩٥٣، وزار الأخيرة في ربيع سنة ١٩٥٤. وقابل في بيروت وزير الدفاع، الأمير مجيد أرسلان، وفي دمشق كلاً من اللواء عبد الله عطفة، رئيس أركان الجيش السوري عند بدء الحرب، والعقيد عبد الوهاب الحكيم الذي قاد الرتل السوري المدرع في هجومه الفاشل على مستعمرة دغانيا جنوبي بحيرة طبرية، وأحمد الشراياتي، وزير الدفاع السوري السابق. وقابل في بغداد كلاً من وزير الدفاع السابق صادق البصام، واللواء إسماعيل صفوت باشا رئيس اللجنة العسكرية التي أشرفت على جيش الإنقاذ، وقائد الجيش العراقي عند بدء الحرب نور الدين محمود، ورئيس أركانه صالح صائب الجبوري، والزعيم محمد طاهر الزبيدي وزميله العقيد الركن نجيب الربيعي اللذين قادا أول هجوم على مستعمرة يهودية (غيشر)، وغيرهم من الضباط العراقيين الأدنى رتبة، وقابل في القاهرة اللواء أحمد فؤاد صادق آخر قائد للجيش المصري على جبهة القتال. ولا علم لنا بباحث عربي آخر، أو غير عربي، قابل مثل هذا الرهط من كبار القادة العسكريين العرب وصغارهم، وسجل لنا بدقة وأمانة رواياتهم عن جبهات القتال التي اشتركوا فيها شخصياً. واللافت أن صاحبنا كسب ثقة من

الثاني/يناير ١٩٥٩، أي في أثناء قيام الجمهورية العربية المتحدة بين سورية ومصر.^{١٧٤} واقتبس أسماء شهداء "الجيش العربي" (جيش شرق الأردن) من بيان أعدته قيادة الجيش في عمان زوده بنسخة عنه رئيس الأركان في كتاب أرسله إلى المؤلف بتاريخ ١٥ شباط/فبراير ١٩٥٥.^{١٧٥} وحصل على أسماء شهداء الجيش السعودي من بيان زوده به الشيخ عبد العزيز الكحيمي الوزير المفوض للمملكة في عمان في كتاب أرسله إليه في ٣٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٤، جواباً على طلب رفعه العارف إلى وزارة الدفاع السعودية.^{١٧٦} واقتبس أسماء شهداء الجيش المصري من بيان رسمي مطبوع أعدته دائرة الشؤون العامة للقوات المسلحة أعطاه نسخة عنه، بناء على طلبه، القائمقام محمود رياض (لاحقاً وزير الخارجية المصري) الذي كان يشغل منصب وكيل دائرة فلسطين حينذاك في وزارة الحرب المصرية.^{١٧٧} واقتبس أسماء شهداء الجيش العراقي من سجلات وزارة الدفاع العراقية عند زيارته بغداد في كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٤.^{١٧٨} وأما لبنان فـ "ليس ثمة أية وثيقة خطية تدلنا على عدد الشهداء اللبنانيين.... سواء أكانوا من رجال الجيش أو من المدنيين المتطوعين"، بيد أنه حصل على أسماء عدد من شهداء الجيش "لدني على أسمائهم الأمير مجيد أرسلان.... عندما زرته في وزارة الدفاع سنة ١٩٥٤ مستطلعاً رأيه في هذا الصدد. فقد قرأت أسماءهم منقوشة على بلاطة من رخام تم تثبيتها على الجدار، في مدخل المبنى."^{١٧٩}

وحرص صاحبنا كل الحرص على الحصول على أسماء شهداء "جيش الإنقاذ"، فقصده لقاء "أثنين من كبار القادة الذين كان لهم المقام الأول في صفوف هذا الجيش، ألا وهما: أمير اللواء الركن إسماعيل صفوت باشا رئيس اللجنة العسكرية.... وفوزي القاوقجي القائد المسؤول عن حركاته في الميدان. وقد قابلت كلا منهما على حدة.... أما اللواء إسماعيل صفوت باشا فقد اجتمعت به في بغداد.... وإليه يرجع الفضل في الكثير من الأخبار التي أوردتها في كتابي (النكبة).... إلا أسماء الشهداء

النظامية، وثانيهما الشهداء المجاهدون الذين انتموا إلى فرق "الجهاد المقدس" الفلسطينية، وسائر المناضلين من أبناء فلسطين، مضافاً إليهم المناضلون في "جيش الإنقاذ" الذي ضم متطوعين من أقطار جامعة الدول العربية، والمناضلون المستقلون من دول المشرق والمغرب، فشملت لوائحه من لاقوا ربهم في ميدان من ميادين القتال، ومنهم من لاقوه وهم في طريقهم إلى الميدان. وآخرون لاقوا حتفهم وهم يساعدون المقاتلين وينقلون إليهم الماء والزاد، أو يحملون الجرحى." ولم يستثن من قوائمه من "فارق الحياة إثر رصاصة طائشة أو لغم زرعه الأعداء في طريق من الطرق، أو ميدان من الميادين العامة، أو إثر قنبلة سقطت على منازلهم في إحدى الغارات الجوية...."^{١٨١} حتى الأشخاص الذين أصابتهم رصاصة طائشة من رصاص العدو وهم في منازلهم، فقد اعتبرتهم شهداء.... لأنهم ثبتوا في منازلهم.... ولأنهم راحوا ضحية القتال في شكل من الأشكال.^{١٨٢}

أما كيف حصل العارف على هذه الأسماء فيخبرنا: "منهم من رأيتهم بعيني وهو يلفظ نفسه الأخير إثر إصابته برصاصة من رصاص العدو الغادر، أو كان مسجى على فراش الموت يقص على أهله وصحبه ما أصابه.... ومنهم من أذاعت اسمه صحيفة من الصحف المحلية، أو محطة من محطات الإذاعة العربية، وقد اعتدت من صغري تتبع الأخبار وتدوينها.... ومنهم من ذكره أمامي لاجئ من اللاجئين أو رفيق من رفاقه المناضلين الذين خرجوا من المعركة سالمين.... ومنهم من عثرت على اسمه في تقارير الأطباء والمرضات وفي سجلات المستشفيات.... ومنهم من قرأت اسمه على ضريحه في إحدى المقابر، أو على نصب من النصب التذكارية التي أقيمت في بعض أنحاء البلاد بعد وقف القتال."^{١٨٣}

أما شهداء الجيوش النظامية، فقد حصل على لائحة بأسماء شهداء الجيش السوري من بيان صادر عن دائرة السجل والإحصاء في قيادة الجيش الأول في دمشق، ومؤرخ في ٣١ كانون

وكان اعترافهما واقعيًا (de facto). ولم تقر جامعة الدول العربية قيام هذه الدولة، وإنما هدت بطردها من عضويتها. وتم الوصول إلى حل وسط بمساع عراقية فحواه أن المملكة إنما تضم إليها الضفة وديعة موقتة إلى حين عودتها إلى أصحابها الأصليين. وشملت الصفقة تخلي الملك عبد الله عن عزمه على عقد معاهدة عدم تعدد مع إسرائيل كان قد اتفق على مسودتها سرا.^{١٨٢} كانت هذه خلفية انتداب الملك عبد الله للعارف رئيساً لبلدية القدس سنة ١٩٤٩. وتنفرد "الموسوعة الفلسطينية" بين الرواة بالإفادة عن أن العارف عين في هذه الفترة حاكماً عسكرياً لقضاء رام الله.^{١٨٣} وهذا ما لم يحدث قطعاً. وفي انتخابات البلدية سنة ١٩٥١ نال صاحبنا أغلبية الأصوات وانتخب رئيساً.^{١٨٤} وظل رئيساً لبلدية القدس إلى أن اختلف مع رئيس الحكومة توفيق أبو الهدى الذي أقاله.^{١٨٥} غير أنه أعيد انتخابه رئيساً في انتخابات البلدية سنة ١٩٥٥.^{١٨٦} ويبدو أن فترة الإقالة لم تدم طويلاً لأن العارف يذكر أنه أمضى خمسة أعوام رئيساً لبلدية القدس.^{١٨٧} وما كادت اتفاقيات الهدنة تُعقد جميعاً حتى قرر العراق السماح لمن يرغب من يهود العراق بالهجرة إلى إسرائيل، وكان عدد هؤلاء نحو ١٠٠,٠٠٠ نسمة. ويقول صاحبنا في ذلك: "وكانت آخر طعنة نجلاء طعن العراق الشقيق بها شقيقته الثكلى فلسطين أنه سمح ليهود العراق بالهجرة إلى إسرائيل. وبعمله هذا مكّن الأعداء من تقوية صفوفهم.... والغريب في الأمر أن رجال الحكم الحالي في العراق اعتبروا خروج اليهود من بلادهم نصراً لهم. هذا ما قاله لي رئيس الوزراء نوري باشا السعيد، عندما التقيت به في القدس في ١٣ كانون الثاني [يناير] ١٩٥١، وسألته عن القيود التي فرضها العراق على اليهود العراقيين من أجل السماح لهم بمغادرة العراق فقال: لا شيء سوى التخلي عن الجنسية العراقية. قلت: أما كان بالإمكان تأجيل ذلك إلى أن تنتهي مشكلة فلسطين، ومشكلة اللاجئين؟ قال: كلا. فقد كان اليهود دائماً وأبداً

فإنها لم تكن لديه. ولماً قابلت فوزي القاوقجي للغرض نفسه، وقد ذهبت إلى بيروت خصيصاً لأراه، فقال لي أنه هو نفسه يعتزم نشر مذكراته عما قريب، وفيها كل ما أريد. وبقيت حتى الآن أنتظر تنفيذ وعده...."^{١٨٨} ويعود العارف إلى القدس لإكمال مسعاه فيتوجه إلى مقبرة في جوار "قبة راحيل" عند مفترق الطرق المؤدية إلى القدس وبيت لحم وخليل الرحمن ويقف عند نصب تذكاري "مثلث الأضلاع مصنوع من الرخام الأبيض، نقشت على ضلعه الغربي أسماء الشهداء المصريين والليبيين والسودانيين والفلسطينيين، وعلى ضلعه الآخر من الشمال أسماء الشهداء اليمنيين والسوريين"^{١٨٩}، فيدون ما قرأ بكل دقة وإخلاص.

ح) العارف بعد النكبة

(١٩٤٩ - ١٩٧٣)

تعاقت الأحداث بسرعة بعد وقف القتال على الجبهة الأردنية - الإسرائيلية في أواخر سنة ١٩٤٨. ففي الأول من كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٨ عقد لفيق من الفلسطينيين مؤتمراً في أريحا بايعوا فيه عبد الله بن الحسين ملكاً دستورياً على الجانبين (أي على ضفتي نهر الأردن: فلسطين وشرق الأردن). وجرى توقيع اتفاقية الهدنة بين شرق الأردن وإسرائيل في نيسان/أبريل ١٩٤٩، فكانت بمثابة اعتراف واقعي من الأخيرة بضم الضفة الغربية إلى شرق الأردن. وفي آذار/مارس ١٩٤٩، حلت إدارة مدنية "أردنية" محل الإدارة العسكرية في الضفة الغربية. وفي أيار/مايو انضم وزراء فلسطينيون لأول مرة إلى حكومة "أردنية"، وفي حزيران/يونيو ١٩٤٩ أصبح اسم البلد الرسمي "المملكة الأردنية الهاشمية". وشارك الفلسطينيون لأول مرة في نيسان/أبريل ١٩٥٠ في الانتخابات البرلمانية الأردنية. وأقر البرلمان الجديد رسمياً ضم الضفة الغربية إلى المملكة، ولم يعترف بالدولة الجديدة سوى بريطانيا وباكستان،

عكف العارف خلال فترة رئاسته بلدية القدس على عملين علميين ضخمين: أولهما كتابه عن "النكبة" الذي بين أيديكم والذي صدر في طبعته الأولى في سبعة أجزاء كما ذكرنا، وثانيهما سلسلة كتب في تاريخ القدس ومقدساتها، وصدر له في ذلك على التوالي في سنة ١٩٥١: "المسيحية في القدس" و"الموجز في تاريخ القدس"،^{١٩٤} وكتاب ثالث بالإنكليزية عن "قبة الصخرة" (*The Dome of the Rock*)^{١٩٥}، وبعد ذلك "تاريخ قبة الصخرة والمسجد الأقصى" (١٩٥٨)، و"المفصل في تاريخ القدس" (١٩٦١). ويصف صاحبنا نهجه في التنقيب عن تاريخ القدس قائلاً:

.... فلم أترك باباً، إلا وطرقتُه؛ ولا معبداً، إلا وولجتُه؛ ولا كلمة منقوشة على الأسوار أو الجدران، إلا أنعمت النظر فيها؛ ولا كتاباً صنّف في تاريخ هذه المدينة وسمعت به، إلا ورجعتُ إليه أنهل من معينه، سواء كان ذلك الكتاب مطبوعاً أو لا يزال مخطوطاً؛ ولا ظللاً من طولها البالية، إلا وقفت عليه أستنطق الأثر وأستطلع الخبر.

أمّا حبه للقدس فيقول فيه:

إني أحبها: لجمالها، وطيب نسيمها، وجودة تربها، ودم الآباء والأجداد الذي يعبق أريجه ويفوح عبيره في كل ذرة من نراها. ولا بدع: فإنها بلدي.. ومسقط رأسي.. ومرتع قومي وعشيرتي.. ففيها أبصرت عيناى النور لأول مرة في حياتي.. وعلى هواها درجت منذ نعومة أظفاري.^{١٩٦}

وتقول ابنته فريدة في وصف ولّهِ والدها بالقدس:

والشيء الذي سأنقله إلى أولادي عن جدهم.... حبه لمدينة القدس واعتزازه بالانتماء إلى هذا البلد العريق.... كان يستمتع بالحديث عن القدس.... وتاريخها.... كان يحب أن يمشي في شوارعها وأزقتها. كان يأخذنا إلى ساحة الحرم القدسي ويشرح لنا تاريخه ويمجد العرب الذين بنوه.... وكم من مرة ذهبنا بصحبته إلى

مصدر شر وضرر في العراق.... إنه خير لنا أن نتخلص منهم، ما دامت الفرصة سانحة.... قلت: ولكن نهابهم إلى إسرائيل في مثل هذا الوقت شر أكبر.... ولكن صاحبنا لم يقنع، بل راح يقنع الملك عبد الله بصدق رأيه. وطلب أن يُسمح لليهود العراق بعبور الأراضي الأردنية في طريقهم إلى إسرائيل.^{١٨٨}

يضيف العارف أنه عندئذ (٢١ كانون الثاني / يناير ١٩٥١)، وبصفته رئيساً لبلدية القدس، أرسل إلى عبد الرحمن عزام باشا، الأمين العام لجامعة الدول العربية، وإلى رؤساء الوفود العربية المجتمعة في حينه في القاهرة برقية قال فيها: "سكان بيت المقدس يستخطون حكومة العراق الشقيق لسماحها لليهود العراق بالهجرة إلى إسرائيل. لو احتفظ كل قطر عربي باليهود العائشين بينهم وبأموالهم وممتلكاتهم رهينة، لحلت بسهولة مشكلتنا فلسطين بوجه عام والللاجئين بوجه خاص."^{١٨٩} ولما نشرت الصحف الفلسطينية البرقية تقبلها الشعب قبولاً حسناً. ويزور صاحبنا الملك عبد الله بعد ذلك بأيام قليلة، فراح الأخير "ينحي باللائمة على نوري باشا السعيد وعلى سياسته الخرقاء.... [إلى أن] قال: إن ما قلته حق. ولكننا لا نريد أن نبهدلهم على صفحات الجرائد علناً."^{١٩٠} ولم يمض أسبوعان آخران (أذار/ مارس ١٩٥١) "حتى راح سكان بيت المقدس والبقية الباقية من مدن فلسطين يسمعون بأذانهم أزيز الطائرات"^{١٩١} الآتية من الشرق في اتجاه مطار اللد في إسرائيل. اختير العارف في سنة ١٩٥٥ وزيراً للأشغال العامة في حكومة هزاع المجالي، وكان هذا الأخير من محبزي انضمام الأردن إلى حلف بغداد برعاية بريطانيا والولايات المتحدة. واضطر المجالي إلى الاستقالة في كانون الأول/ديسمبر من السنة نفسها في إثر تظاهرات عارمة قامت في البلد ضد الانضمام إلى الحلف.^{١٩٢} ويذكر العودات أن صاحبنا استقال من الحكومة "بعد أيام [أي من دخولها].... لخلاف وقع بينه وبين رئيس الوزارة.... لإصراره على تجنيب الأردن الدخول في حلف بغداد."^{١٩٣}

ولم يفت صاحبنا خلال رئاسته بلدية القدس أن ينشئ معهداً لتدريب أدلاء السياحة العرب حرصاً على سلامة أدائهم مع الزوار الأجانب.^{٢٠٣} وفي سنة ١٩٦٣ عُيِّن العارف مديراً للمتحف الفلسطيني الذي كان بُني في أثناء الانتداب بفضل معونة من مؤسسة روكفلر الأميركية.^{٢٠٤} ويؤزره سنة ١٩٦٤ في رام الله صديقه القديم محمد عزة دروزة قادماً من دمشق، ويقول الأخير في ذلك: "وقد التقينا به.... حينما زرنا فلسطين في سنة ١٩٦٤ وجدنا تعارفنا وصادقتنا."^{٢٠٥} ويؤزر عارف في السنة ذاتها ألمانيا بدعوة من رابطة الطلاب المسيحيين الديمقراطية، ويدخل "مع رهط من الكتاب اليهود [في بون] في جدل حول القضية."^{٢٠٦} ويقوم سنة ١٩٦٧ بفريضة الحج إلى البيت الحرام.^{٢٠٧}

وتخيم ظلال النكبة الثانية (١٩٦٧) على آخر سني حياته، ويتلقى سنة ١٩٦٨ دعوة إلى حضور حفلة استقبال من "رئيس بلدية القدس الإسرائيلي تيدي كوليك الذي كان قد طرد خليفة صاحبنا في رئاسة البلدية روجي الخطيب، بعد ضم القدس الشرقية قسراً إلى بلدية القدس الإسرائيلية، فيجيب العارف بالاعتذار "عن تلبية دعوة من يحتل مكاني، ويمثل الدولة التي اغتصبت أرضي وبلدي، وسأعيد النظر في قراري عندما تنسحبون وتعترفون بحقوقنا."^{٢٠٨}

ويشتاق صاحبنا إلى رؤية بيته في حي البقعة الذي احتله اليهود خلال حرب ١٩٤٨، والذي أصبح الوصول إليه ممكناً بعد احتلال إسرائيل القدس الشرقية وال الضفة الغربية سنة ١٩٦٧. ويصل إليه، فعلاً، لكن السيدة الإسرائيلية التي كانت تقيم به ترفض أن تسمح له بدخوله وتطرده صارخة: "أذهب.. لا أريد أن أراك.. فأنت الآن لا تملك شيئاً.. هذا أصبح بيتي ولو أتيت بتصريح من غولدا مئير فلن أسمح لك برؤيته."^{٢٠٩} ويرتد صاحبنا كئيباً إلى مكان إقامته في رام الله، ويصاب بجلطة دموية أخذت تضعفه شيئاً فشيئاً إلى أن توفاه الله في ٣٠/٧/١٩٧٣ عن واحد وثمانين عاماً، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه. ■

صلاة عيدَي الفطر والأضحى وليلة القدر وإلى احتفالات سبت النور أو احتفالات أعياد الميلاد في كنيسة المهدي، إذ كان يريد أن يعمق ارتباطنا وإحساسنا بتراث فلسطين.^{١٩٧}

وتقول فريدة عن حياتهم العائلية في القدس:

ففي طفولتي كانت من أحب اللحظات إلى نفسي تلك التي نلتف بها كعائلة حول والدي حيث كان يحدثنا بحرية وإسهاب عن حياته.... وأين عاش في صباه.... وإني لا أذكر عيداً قضيناه في طفولتي.... دون أن تجتمع العائلة على مائدة الغداء في بيتنا.... وكان يشعر بسعادة حقيقية وهو يرى الجميع ملتفين حوله.

وعن علاقته بزوجته (والدة فريدة) تقول:

كانت علاقته بوالدتي تقوم على الاحترام والحب المتبادل، وكانت ترافقه في جميع رحلاته، ويستشيرها في أي مسألة تخص الأولاد أو العائلة.^{١٩٨}

وإلى جانب انكباب العارف على البحث والتأليف اهتم اهتماماً كبيراً بشؤون المناضلين الجرحى، فكان رئيس اللجنة التنفيذية لـ "رابطة المناضل الجريح"^{١٩٩} في القدس، وكان من أوفى الرعاة لـ "جمعية إنعاش الأسرة" برئاسة المناضلة سميحة الخليل.^{٢٠٠} وتميز صاحبنا بنظرة متحررة تقدمية إلى المرأة العربية، وانتقد بشدة وضعها في زمنه، إذ كانت "ألعبه بيد الرجل، تباع وتشترى كبيع السلع"، وترغم "على العيش والبقاء بين جدران البيت الأربعة"، وكان طالها "منوطاً بكلمة صغيرة، تخرج من فم الرجل الظالم."^{٢٠١} ودعا إلى المساواة التامة بقوله: "الذكر والأنثى.... متساويان ليس في مسائل الوراثة فحسب، بل وفي جميع الحقوق والواجبات." وتطلع إلى زمن "إذا ما أحب العربي فتاة وفكر في الاقتران بها، أتى إليها بنفسه، وحديثها بما يكنه ضميره. فإذا أحبته وشعرت في قلبها بميل إليه أجابته إلى طلبه، وإلا اعتذرت بأدب وصراحة. وافترق الاثنان دون صخب أو ضجيج، ودون قيل وقال."^{٢٠٢}

المصادر

- ١ سليم تماري، "مع ناقة الله في سيبيريا: عارف العارف في الأسر الروسي خلال الحرب العالمية الأولى"، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٧٦ (خريف ٢٠٠٨)، ص ١١٢.
- ٢ فريدة العارف العمدة، "عارف العارف: أباً"، مجلة "التراث والمجتمع"، العدد ٤١ (تموز/يوليو ٢٠٠٥)، ص ١٤٩.
- ٣ "من هو؟: رجالات فلسطين" (عمان: مؤسسة التعاون، ١٩٩٩)، ص ٨٠.
- ٤ العمدة، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٩.
- ٥ المصدر نفسه.
- ٦ تماري، مصدر سبق ذكره، ص ١١٢.
- ٧ "الموسوعة الفلسطينية"، القسم العام (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤)، المجلد ٣، ص ١٥٠.
- ٨ يعقوب العودات، "من أعلام الفكر والأدب في فلسطين" (عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٦)، ص ٤٠٠.
- ٩ "من هو؟..."، مصدر سبق ذكره، ص ٨٠.
- ١٠ فوزي يوسف، كلمة الناشر في: عارف العارف، "المفصل في تاريخ القدس" (القدس: مكتبة الأندلس، ١٩٦١)، ص ٥٧٠.
- ١١ العمدة، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٩.
- ١٢ تماري، مصدر سبق ذكره، ص ١١١.
- ١٣ محمد عزة دروزة، "مذكرات محمد عزة دروزة: ١٣٠٥هـ - ١٤٠٤هـ/١٨٨٧م - ١٩٨٤م" (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣)، المجلد ١، ص ٣٢٦.
- ١٤ تماري، مصدر سبق ذكره، ص ١١١، ١١٢.
- ١٥ العمدة، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٩.
- ١٦ العودات، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٣.
- ١٧ تماري، مصدر سبق ذكره، ص ١١٢.
- ١٨ "الموسوعة..."، مصدر سبق ذكره، المجلد ٤، ص ٣٠٨.
- ١٩ المصدر نفسه، ص ٣٠٨ - ٣٠٩.
- ٢٠ جورج أنطونيوس، "يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية"، ترجمة إحسان عباس وناصر الدين الأسد (بيروت: دار العلم للملايين، ط ٧، ١٩٨٢)، ص ١٨٤ - ١٨٥.
- ٢١ دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٦.
- ٢٢ العودات، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٠. انظر أيضاً صورة فوتوغرافية له وهو في هذا المنصب في: تماري، مصدر سبق ذكره، ص ١١١.
- ٢٣ عارف العارف، "رؤياي" (بيروت: دار ربحاني للطباعة والنشر، ط ٢، ١٩٥٧)، ص ٣.
- ٢٤ تماري، مصدر سبق ذكره، ص ١١٢ - ١١٣.
- ٢٥ المصدر نفسه، ص ١٠٩.
- ٢٦ العارف، "رؤياي"، مصدر سبق ذكره، ص ٣.
- ٢٧ تماري، مصدر سبق ذكره، ص ١١٣.
- ٢٨ العارف، "رؤياي"، مصدر سبق ذكره، ص ٤.
- ٢٩ المصدر نفسه، ص ٥، الحاشية ١.
- ٣٠ المصدر نفسه، ص ٤.
- ٣١ تماري، مصدر سبق ذكره، ص ١١٧.
- ٣٢ العارف، "رؤياي"، مصدر سبق ذكره، ص ٤ - ٥.

- ٣٣ انظر صورة لصدر الجريدة في: تماري، مصدر سبق ذكره، ص ١١٤. ويظهر في الزاوية العليا اليسرى للصورة اسم عارف العارف بدل عارف شحادة، الأمر الذي يدل على أن صاحبنا انتحل الاسم الجديد خلال الأسر في سيبيريا.
- ٣٤ المصدر نفسه، ص ١١٤ - ١١٥.
- ٣٥ المصدر نفسه، ص ١١٥.
- ٣٦ عارف العارف، "رؤياي" (بيت المقدس: مطبعة الأباء الفرنسيين، ط ١، ١٩٤٣)، ص ٢.
- ٣٧ المصدر نفسه.
- ٣٨ المصدر نفسه، ص ٢ - ٣.
- ٣٩ العمدة، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠.
- ٤٠ العارف، "رؤياي"، مصدر سبق ذكره، مقدمة ط ٢، ص ٨.
- ٤١ المصدر نفسه، ط ١، ص ٦.
- ٤٢ المصدر نفسه، ص ٩ - ١٠.
- ٤٣ المصدر نفسه، ص ١١.
- ٤٤ المصدر نفسه، ص ١٢ - ١٣.
- ٤٥ المصدر نفسه، ص ١٥.
- ٤٦ المصدر نفسه، ص ١٦ - ١٨.
- ٤٧ دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ٣١١.
- ٤٨ المصدر نفسه، ص ٣١٨.
- ٤٩ المصدر نفسه.
- ٥٠ المصدر نفسه، ص ٣١٩.
- ٥١ "الموسوعة..."، مصدر سبق ذكره، المجلد ٤، ص ٣٦٩.
- ٥٢ المصدر نفسه، ص ٣٧٥.
- ٥٣ دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٩.
- ٥٤ المصدر نفسه، ص ٣٣٤.
- ٥٥ المصدر نفسه، ص ٣٢٠.
- ٥٦ *A Survey of Palestine* (Washington D.C.: Institute for Palestine Studies, 1991), vol. I, p. 2.
- ٥٧ دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٥.
- ٥٨ المصدر نفسه، ص ٣٨٥.
- ٥٩ المصدر نفسه، ص ٣٨٦.
- ٦٠ "الموسوعة..."، مصدر سبق ذكره، المجلد ٢، ص ٦٠٠.
- ٦١ المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ٣٥٤؛ دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩٠.
- ٦٢ "الموسوعة..."، مصدر سبق ذكره، المجلد ١، ص ٥٦٦.
- ٦٣ انظر: عمر الصالح البرغوثي، "المراحل" (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١)، ص ٢٢٧.
- ٦٤ *A Survey...*, op. cit., vol. I, p. 17.
- ٦٥ البرغوثي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٨.
- ٦٦ تماري، مصدر سبق ذكره، ص ١٢١؛ العودات، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠١.
- ٦٧ دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٦.
- ٦٨ المصدر نفسه، ص ٣٥٠.
- ٦٩ المصدر نفسه.
- ٧٠ المصدر نفسه، ص ٣٩٥.

- ٧١ المصدر نفسه، ص ٣٩٢، ٣٩١.
- ٧٢ المصدر نفسه، ص ٤٢٣.
- ٧٣ المصدر نفسه.
- ٧٤ المصدر نفسه، ص ٤٢٤.
- ٧٥ المصدر نفسه، ص ٤٢٣.
- ٧٦ تماري، مصدر سبق ذكره، ص ١٢١.
- ٧٧ عادل مناع، "أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني (١٨٠٠ - ١٩١٨)" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط ٤، ٢٠٠٨)، ص ١٣١.
- ٧٨ يوسف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧٢.
- ٧٩ دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٦.
- ٨٠ تماري، مصدر سبق ذكره، ص ١٢١.
- ٨١ "الموسوعة..."، مصدر سبق ذكره، المجلد ٣، ص ١٥٠.
- ٨٢ تماري، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٣.
- ٨٣ Harry Luke and Edward Keith-Roach, eds., *The Handbook of Palestine and TransJordan* (London: Macmillan, 1930), p. 424.
- ٨٤ Ibid., p. 422.
- ٨٥ يوسف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧٢؛ شريف الأنصاري، كلمة الناشر في: عارف العارف، "النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود، ١٩٤٧-١٩٤٩" (صيدا: المطبعة العصرية، ١٩٥٦)، ص ٣٨٥؛ "الموسوعة..."، مصدر سبق ذكره، المجلد ٣، ص ١٥٠.
- ٨٦ العودات، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٢.
- ٨٧ تماري، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٥.
- ٨٨ الأنصاري، مصدر سبق ذكره.
- ٨٩ عارف العارف، "تاريخ غزة" (بيت المقدس: مطبعة دار الأيتام الإسلامية، ١٩٤٣)، ص ١.
- ٩٠ العارف، "رؤياي"، مصدر سبق ذكره، ط ٢، ص ٩.
- ٩١ A Survey..., op. cit., vol. I, p. 104.
- ٩٢ يوسف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧٢.
- ٩٣ انظر: ذيل "المفصل في تاريخ القدس"، مصدر سبق ذكره.
- ٩٤ العمدة، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٤.
- ٩٥ Walid Khalidi, "Plan Dalet Revisited," *Journal of Palestine Studies*, vol. XVIII, no. 1 (Autumn 1988), pp. 3-70.
- ٩٦ A Survey of Palestine (Jerusalem: Government Printer, 1946), vol. I, p. 151.
- ٩٧ بلغ عدد سكان منطقة القدس الدولية (Corpus Separatum) بموجب قرار التقسيم ١٠٠,٠٠٠ يهودي و ١٠٥,٠٠٠ عربي بحسب تقرير لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين (UNSCOP) إلى الجمعية العامة: (United Nations Special Committee on Palestine, "Report to the General Assembly" (New York, 1947), vol. I, p. 54.
- بينما بلغ عدد السكان اليهود في قضاء القدس ١٠٠,٢٠٠ وعدد السكان العرب ١٤٠,٥٣٠، أي أن الأكثرية الساحقة من السكان (٦٨,٨٪) في جوار القدس خارج حدود البلدية المصطنعة كانت من العرب بحسب التقرير الرسمي الذي أعدته الحكومة البريطانية قبيل نهاية الانتداب:
- A Survey of Palestine, op., cit., vol. I, p. 156.

- ٩٨ عارف العارف، "النكبة" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط ٢، سيصدر قريباً)، ج ١، ص ٨٧.
- ٩٩ المصدر نفسه، ص ١١٨.
- ١٠٠ المصدر نفسه، ص ١١٢.
- ١٠١ المصدر نفسه، ص ١٢٦.
- ١٠٢ المصدر نفسه، ص ١٢٧-١٢٨.
- ١٠٣ المصدر نفسه، ص ١٣٦-١٣٧. انظر تفصيلات المفاوضات بشأن استسلام رجال القافلة.
- ١٠٤ المصدر نفسه، ص ١٥٠.
- ١٠٥ وليد الخالدي، "دير ياسين: الجمعة، ٩/٤/١٩٤٨" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط ٢، ٢٠٠٣).
- ١٠٦ العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ١٧٠.
- ١٠٧ المصدر نفسه، ص ١٧٥-١٧٦.
- ١٠٨ المصدر نفسه، ص ١٩٢.
- ١٠٩ المصدر نفسه، ص ٢٨٧.
- ١١٠ انظر أعلاه، ص ٦٢-٦٣.
- ١١١ العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٠٧.
- ١١٢ المصدر نفسه، ص ٢٠٩.
- ١١٣ المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠٩.
- ١١٤ المصدر نفسه، ص ٤٣٠.
- ١١٥ المصدر نفسه، ص ٤٩٣.
- ١١٦ المصدر نفسه، ص ٥٠٦ (الحاشية ١).
- ١١٧ المصدر نفسه، ص ٥٠٩-٥١٠.
- ١١٨ انظر: وليد الخالدي، "خمسون عاماً على حرب ١٩٤٨: أولى الحروب الصهيونية" (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٩٨).
- ١١٩ تمتد هذه المباني خارج أسوار البلدة القديمة من الشمال إلى الجنوب الغربي.
- ١٢٠ العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٥٣١-٥٣٢، ٥٣٤.
- ١٢١ انظر أعلاه، ص ٦٣.
- ١٢٢ العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤.
- ١٢٣ المصدر نفسه.
- ١٢٤ المصدر نفسه.
- ١٢٥ المصدر نفسه، ص ١٥-١٦.
- ١٢٦ المصدر نفسه، ص ١٦.
- ١٢٧ المصدر نفسه، ص ١٦، ١٧.
- ١٢٨ انظر: الخالدي، "خمسون عاماً..."، مصدر سبق ذكره، ص ٨٩ وما يلي.
- ١٢٩ انظر أعلاه، ص ٦٣.
- ١٣٠ العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٩-٥٠.
- ١٣١ البيرة في جوار رام الله.
- ١٣٢ العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٦، ٥٧.
- ١٣٣ المصدر نفسه، ص ٥٦.
- ١٣٤ يعني لاش بك الإنجليزي.
- ١٣٥ العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨.
- ١٣٦ انظر النصين الكاملين لرسالة العارف ومكالمة عبد الله الهاتفية في: العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٨-٥٩.

- ١٣٧ المصدر نفسه، ص ٥٩ - ٦٠.
- ١٣٨ القرار رقم ١٩٤ الصادر في ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٨.
- ١٣٩ العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٨١ - ٨٢.
- ١٤٠ المصدر نفسه، ص ٨٣.
- ١٤١ المصدر نفسه، ص ٨٢.
- ١٤٢ المصدر نفسه، ص ٨٣.
- ١٤٣ انظر أعلاه، ص ٦٣؛ الخالدي، "خمسون عاماً..."، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥ وما يلي.
- ١٤٤ المصدر نفسه، ص ١٠٩ وما يلي.
- ١٤٥ العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١٢٤ - ١٢٥.
- ١٤٦ المصدر نفسه، ص ١٤٧ - ١٤٨.
- ١٤٧ لا يذكر العارف تاريخ رسالة عبد الله إلى النقراشي.
- ١٤٨ العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١٤٧.
- ١٤٩ المصدر نفسه، ص ١٤٥ - ١٤٧.
- ١٥٠ انظر أدناه، ص ٧٧.
- ١٥١ العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ١٥٠.
- ١٥٢ الخالدي، مصدر سبق ذكره، ص ١١٦ وما يلي.
- ١٥٣ المصدر نفسه، ص ١٣٢ وما يلي.
- ١٥٤ العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.
- ١٥٥ جزيرة في البحر الإيجي اختارتها الأمم المتحدة لإجراء مفاوضات الهدنة فيها بين إسرائيل والدول العربية.
- ١٥٦ العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.
- ١٥٧ المصدر نفسه، ص ٢٩٤.
- ١٥٨ المصدر نفسه، ص ٢٩٥.
- ١٥٩ انظر أعلاه، ص ٦٣.
- ١٦٠ العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٣٣٩.
- ١٦١ المصدر نفسه، ص ٣٤٠.
- ١٦٢ المصدر نفسه، ص ٣٤٣.
- ١٦٣ المصدر نفسه، ص ٣٢٩.
- ١٦٤ المصدر نفسه، ص ٣٣٤.
- ١٦٥ المصدر نفسه، ص ٣٥٠.
- ١٦٦ تولى العارف منصب السكرتير العام في حكومة شرق الأردن خلال الفترة ١٩٢٦-١٩٢٩. انظر أعلاه، ص ٦١.
- ١٦٧ العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ١٢٨.
- ١٦٨ المصدر نفسه، ص ٢٢٢، ٢٢٤ (الحاشية ١).
- ١٦٩ المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧١ (الحاشية ١).
- ١٧٠ المصدر نفسه، ص ١٦٠ (الحاشية ٣)، ١٦٦.
- ١٧١ المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٩.
- ١٧٢ المصدر نفسه، ص ١٨٦.
- ١٧٣ المصدر نفسه، ص ١٧٩.
- ١٧٤ المصدر نفسه، ص ٣٩٥.
- ١٧٥ المصدر نفسه، ص ٣٧١.

- ١٧٦ المصدر نفسه، ص ٢٩ (الحاشية ١).
- ١٧٧ المصدر نفسه، ص ٣٢٠.
- ١٧٨ المصدر نفسه، ص ١٨.
- ١٧٩ المصدر نفسه، ص ٤٤٢.
- ١٨٠ المصدر نفسه، ص ٤٤٧ - ٤٤٨.
- ١٨١ المصدر نفسه، ص ٣٦٣.
- ١٨٢ Yaacov Shimoni, ed., *Political Dictionary of the Arab World* (New York: Macmillan, 1987), p. 255.
- ١٨٣ "الموسوعة..."، مصدر سبق ذكره، المجلد ٣، ص ١٥٠.
- ١٨٤ العودات، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٢.
- ١٨٥ يوسف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧٢؛ "توفيق أبو الهدى" في: "الموسوعة..."، مصدر سبق ذكره، المجلد ١، ص ٦٠٢.
- ١٨٦ يوسف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧٢.
- ١٨٧ مقدمة "المفصل..."، مصدر سبق ذكره.
- ١٨٨ العارف، "النكبة"، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.
- ١٨٩ المصدر نفسه، ص ٣٣٥ - ٣٣٦.
- ١٩٠ المصدر نفسه، ص ٣٣٦.
- ١٩١ المصدر نفسه.
- ١٩٢ Shimoni, op. cit., p. 256.
- ١٩٣ العودات، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٢.
- ١٩٤ انظر: ذيل "المفصل..."، مصدر سبق ذكره.
- ١٩٥ Walid Khalidi and Jill Khadduri, eds., *Palestine and the Arab Israeli Conflict: An Annotated Bibliography* (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1974), p. 30.
- ١٩٦ مقدمة "المفصل..."، مصدر سبق ذكره.
- ١٩٧ العمدة، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٢.
- ١٩٨ المصدر نفسه، ص ١٤٩، ١٥٠، ١٥٣.
- ١٩٩ يوسف، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧٢.
- ٢٠٠ العمدة، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٣.
- ٢٠١ العارف، "رؤياي"، مصدر سبق ذكره، ط ١، ص ٣٢، ٣٣.
- ٢٠٢ المصدر نفسه، ص ٥٣، ٥١.
- ٢٠٣ العمدة، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٢.
- ٢٠٤ Mahdi Abdul Hadi, ed., *Palestinian Personalities: A Biographic Dictionary* (Jerusalem: Passia, 2006), p. 36.
- ولقد اعتمدنا التاريخ لتعيينه الذي ذكرته Passia وليس سنة ١٩٦٧ التي ذكرتها "الموسوعة الفلسطينية".
- ٢٠٥ دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٧.
- ٢٠٦ العودات، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٢.
- ٢٠٧ المصدر نفسه.
- ٢٠٨ العمدة، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٣.
- ٢٠٩ المصدر نفسه، ص ١٥٤.